

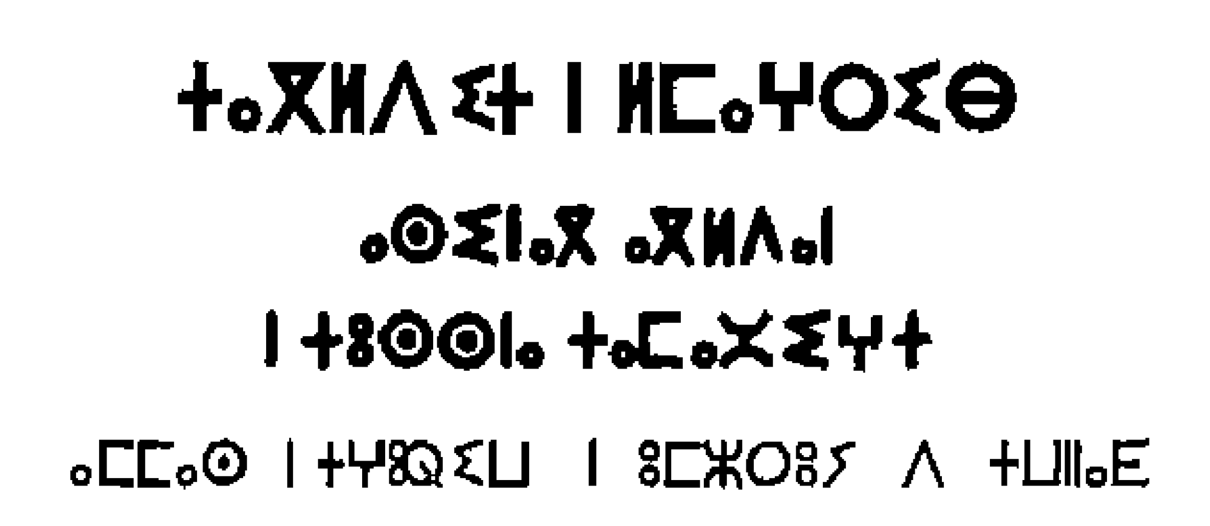
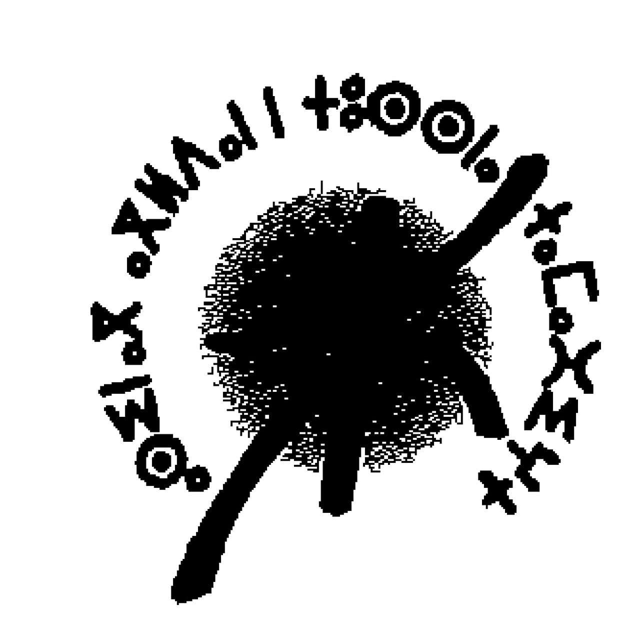
نورالدين صادق

حركة الشيخ يحيى الحاحي وقيام امارة تارودانت

الجزء الأول: من الدعوة الى الامارة

حركة الشيخ يحيى الحاحي
وقيام إمارة تارودانت

الجزء الأول: من الدعوة إلى الإمارة

المملكة المغربية

المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

مركز الدراسات التاريخية والبيئية

نور الدين صادق

حركة الشيخ يحيى الحاحي وقيام إمارة تارودانت

الجزء الأول: من الدعوة إلى الإمارة

دراسة في قيام وتطور زاوية إداوزداغ المنانية الحاحية،

ورصد لمختلف أدوارها الدينية والعلمية والاجتماعية،

ولمرتكزات وآليات انتقالها إلى الطور السياسي.

منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

مركز الدراسات التاريخية والبيئية

سلسلة الندوات والمناظرات رقم : 23

العنوان	: حركة الشيخ يحيى الحاحي وقيام إمارة تارودانت الجزء الأول : من الدعوة إلى الإمارة
الكاتب	: نورالدين صادق
التنسيق والإعداد للنشر	: علي بنطالب
الناشر	: المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية
تصميم الغلاف	: وحدة النشر
صورة الغلاف	: نورالدين صادق
إخراج وطبع	: مطبعة المعارف الجديدة - الرباط/2010
رقم الإيداع القانوني	: 2010 MO 1236
ردمك	: 978-9954-28-046-1

تقديـــم

عمر أفا
كلية الآداب - الرباط

يعتبر هذا الكتاب مقاربة نقدية متميزة وإنجازاً فكرياً رصيناً، ومع مسعاه المادي في هذا المنحى، فإنه لم يحجب، عنا أبداً، ما يزخر به من مضمون رمزي متألّـق، بحيث يكاد المرء يستشعر من خلال قراءته للكتاب، سماع هدير التهاليل ترتفع بأصوات المجاهدين، تقاطعها صهلات الخيل وهدّات البارود. إنه صدى مسير التاريخ، ينبعث من أعماق الذاكرة، ليبوح بما جرى عند أسوار المدينة العتيقة "تارودانت"، وبعيداً عنها، في متسع تلك الأرباض والمدن والثغور.

هذه النفحة التاريخية صادرة عن تكوين باحث محنك، وهي تشكل إنجازاً بذل فيه الأستاذ نور الدين صادق كامل مجهوده، فعندما تصدى - بحثاً عن الجذور - **لحركة الشيخ يحيى الحاحي وقيام إمارة تارودانت في القرن السابع عشر للميلاد**، التي دامت قرابة ربع قرن بين 1603-1626 م، كشف بذلك عن جانب من جوانب تاريخ منطقة سوس والجنوب المغربي، التي كانت تعيش لحظة من لحظات الاضطراب الذي يعرفه المغرب برمته في أواخر العهد السعدي.

وكانت منطقة سوس في هذه الظرفية إقليماً منفتحاً أمام كل التيارات، رغم ما يبدو من كونها منزوية وراء سلاسل الأطلس الكبير، فقد كانت مستهدفة من قبل الدول الأجنبية على طول سواحل المحيط الأطلسي. كما كانت علاقات المخزن بالقبائل موصولة في كل فترة من فترات التاريخ بفضل المسالك العديدة التي تخترق تلك السلاسل. فلم تمتنع هذه الجهات على السلطة المركزية إلا لماماً، فتظهر بعض الإمارات في فترات وهن الدولة، وسرعان ما تنهار تلك الإمارات،لأنها ما أن تكون منشغلة بلمّ أطرافها وبصراعها مع إمارات محلية أخرى حتى تطلع عليها سلطة دولة جديدة قوية، تكون بديلا عن الواهنة.

وقد ساهمت معطيات من التاريخ والجغرافية في هذه الجهة في انصهار القبائل الأمازيغية والعربية واستقرارها، وتألفت تركيبة اجتماعية ساد فيها النظام القبلي الذي تحكمه مؤسسة الأعراف والأحلاف والتكتلات.

وبفضل المجال الاقتصادي الذي تبدو عليه غلبة الجانب الفلاحي والرعوي، وهو جانب لم يحجب عنا ذلك الدور التجاري المتميز الذي تضطلع به منطقة سوس كوسيط في تجارة القوافل وترويج المبادلات -جلباً و وسقاً- بين بلدان أفريقيا وأوروبا عبر الصحراء وعبر الموانئ المغربية، وما وراء البحار.

فمن رحِم هذه الجهات انبعثت سلطة العديد من الأسر الحاكمة، فكانت هذه المنطقة "مركز صنع السلطات"، فمنها وقع انبعاث حكم المرابطين وحكم الموحدين وحكم الشرفاء السعديين، وشكلت نهاية الحكم السعدي واقتراب ظهور طلائع الدولة العلوية اللحظات التي يتحدث الكتاب في إطارها عن علاقة القبائل والزوايا بالسلطة، حيث ظهر العديد من الحركات والقيادات والزعامات المحلية ونشأ - عموما - العديد من الإمارات.

وكانت الوثائق والمستندات، هي مَلاذ المؤلِّف في تلك الحبكة التاريخية لصياغة تصور الأوضاع التي فقد فيها المخزن السعدي مشروعية الحكم، واندفعت القبائل للالتفاف حول شيوخ الزوايا وحول الزعامات المحلية بعد تدخلها في شؤون السياسة وشؤون الناس.

وفي متوالية من الوقائع والتطاحنات السياسية وصراعات الزعامات المحلية وأبناء المنصور، ظهر نفوذ الشيخ يحيى الحاحي في أيام زيدان، فتصدى هذا الكتاب لاستيعاب مشروع هذا الشيخ، من الدعوة إلى الإمارة، في سياق يضع في الطليعة مؤهلات الشيخ المعنوية والمادية: علماً وإرثاً عائلياً وأملاكاً وعقاراً وهبات القبائل وتكتلاتها.

وفي صورة ناصعة قدم المؤلف الأسس النظرية لحركة الشيخ نحو تحقيق مشروع الإمارة على قواعد الإصلاح الديني والأخلاقي مما تقتضيه التربية الصوفية للزاوية التي يتزعمها، وعلى قواعد الإصلاح السياسي مما يقتضيه حماسه نتيجة اضطراب البلاد وما أصابها من انتشار الفساد أخذ بمبدإ "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، فكان تغيير المنكر حجر الزاوية في نظرية الشيخ خصوصاً بعد استفحال الغزو الأجنبي وتردي الأوضاع الاقتصادية، بسبب: عجز تجارة القوافل الرابطة بين تنبكتو وفاس، وبسبب انتشار القحوط والمجاعات وبسبب الإجحاف الضريبي في نهاية العهد السعدي.

ويكتمل مضمون الكتاب بتطبيق هذه الأسس على أرض الواقع حيث تفاعلت في هذه الظرفية أحداث تمخَّض عنها استنجاد السلطان زيدان بن المنصور بالشيخ يحيى الحاحي في إطار شروط لم يحصل فيها توافق بين الرجلين بل نشأ بينهما مواجهة وتصدع، وفي طريق بناء الإمارة الحاحية تصطدم طموحات الشيخ بقوة الإمارة السملالية.

وقد مهد الأستاذ الباحث في نهاية الكتاب لبقية نتائج مشروع الشيخ يحيى الحاحي بتصور لملم فيها مضمون أجوبته عن مختلف الأسئلة الحاسمة في الموضوع.

وفي مضمون هذه المقاربة، في شقيها المادي والرمزي، يجد القارئ بكيفية عفوية، ما يحثه للوقوف على تفاصيل الإمارة الحاحية، والوقوف كذلك على الحصيلة العامة التي يعرفها تاريخ المغرب في هذه الحقبة، على مستويات الاقتصاد والسياسة والثقافة والاجتماع، عند أفول دولة شائخة، وانبعاث طلائع دولة جديدة تؤول إليها مقاليد الأمور.

الرباط: 2006/6/9

مقدمة

منذ انطلاق رحلة بحثنا في تاريخ تارودانت أواسط الثمانينات من القرن الماضي، استوقفنا بشكل لافت ذلك التضارب في الآراء والمواقف من حركة الشيخ أبي زكرياء يحيى بن عبد الله الحاحي، كما هالنا ما تعج به المصادر المختلفة من تناقض المؤرخين، وكتاب التراجم والوفيات وغيرهم.. في ما أصدروه من أحكام حول جوانب متباينة من شخصية هذا الرجل. ففيما يرفعون بشكل قل نظيره من شأن الشيخ يحيى الفقيه، المحدث والمسند الأثري، ويطرون غاية الإطراء على نبوغه الأدبي وشاعريته الفذة، ويجمعون على علو شأنه في الولاية والصلاح، ويقرون بعلو سنده الصوفي... نجدهم سرعان ما يقلبون له ظهر المجن عندما يتعلق الأمر بنشاطه السياسي، وخلعه بيعة زيدان بن المنصور بعدما كان قد نصره على الثائر ابن أبي محلي وأعاده إلى دار ملكه بالقصر البديع، فيصدرون في حقه أحكام قيمة قاسية تهوي بمكانة الرجل، وتنضو عنه ما كان يرفل فيه من ثوب الإطراء والتقدير والإجلال، وتشكك في صدق نواياه وسلامة منطلقاته...

إن تتبع هذه الآراء والمواقف وتمحيصها يفصح عن تشابه ملفت في مضمونها ومعناها، وإن اختلفت مبانيها وتنوعت عباراتها وألفاظها، وهو ما يكشف من دون ريب عن وحدة المصدر، الذي تمثله **"الفوائد الجمة بإسناد علوم الأمة"** للقاضي أبي زيد عبد الرحمان التمنارتي. فهذه المصادر إما تنقل عنه مباشرة، أو تأخذ عن **"نزهة الحادي"** للإفراني الذي استقى كل ما أورده عن الشيخ يحيى من **الفوائد الجمة** كما صرح هو نفسه بذلك.

مرت علاقات التمنارتي بأستاذه وشيخه يحيى عبر مرحلتين متباينتين: مرحلة أولى تميزت بالتناغم وصفاء الود، كان خلالها يحيى شيخ التمنارتي وأميره وولي نعمته حيث عينه قاضيا على إمارته بتارودانت بعد أن خلع بيعة زيدان، ثم مرحلة ثانية تكدر فيها الصفو وتلبدت خلالها سماء العلاقات بين الرجلين بغيوم الاختلاف والجفاء بعد أن أقدم يحيى على عزل تلميذه عن منصب القضاء. ولا غرو إذن أن تحمل الرواية المنقولة عن التمنارتي في طياتها آثار هذه الازدواجية وهذا الانقلاب المفاجئ في العلاقات: ليأتي

شقها الأول المليء بعبارات الإطراء والإعجاب والمدح مطابقا لمرحلة الود والصفاء، وليعبر شقها الثاني المشحون بالإحباط وبخيبة الأمل عن مرحلة الشنآن والصد والجفاء.

ولعل حساسية وازدواجية واضطراب ما أورده التمنارتي من معلومات وأخبار حول يحيى الحاحي الفقيه العالم الأديب والشيخ الصوفي المتبوع، وما أصدره من أحكام ومواقف تتعلق بإمارته وشؤون إدارتها، تجد تفسيرها أيضا وأساسا في الظروف المحيطة بتأليف وإخراج كتاب الفوائد الجمة، وفي حساسية تلك العلاقة التي سبق ونبهنا إليها في بعض كتاباتنا حول مصادر التاريخ المحلي بالمغرب(*)، كما سبقنا إلى ذلك عدد كبير من الباحثين والمؤرخين، ويتعلق الأمر هنا بالعلاقة بين الكتابة التاريخية وحتمية تأثرها بالسلطة السياسية القائمة. وفي هذا السياق لا يجدر بنا أن ننسى أن التمنارتي فرغ من تأليف فوائده حوالي سنة (1045 هـ/ 1636 م)، أي بعد وفاة الشيخ يحيى بما يربو عن العشر سنوات، وفي فترة كانت فيها تارودانت تخضع لحكم أبرز منافسيه وألد خصومه السياسيين: الأمير علي أبو حسون السملالي أمير إليغ، والذي كان قد أعاد التمنارتي من جديد لقضاء تارودانت.

أمر آخر أثار انتباهنا وهو لا يقل أهمية عن سابقه، ألا وهو صدور العديد من الدراسات والأبحاث التي ألقت مزيدا من الأضواء حول منطلقات، ودوافع، ومواقف، ومراحل مختلف الحركات السياسية والإمارات المعاصرة أو المنافسة للإمارة الحاحية بتارودانت، مثل حركة المجاهد العياشي بسلا، و ابن أبي محلي بوادي الساورة، والزاوية الدلائية، إمارة السملاليين أبناء سيدي أحمد بن موسى بإليغ... في حين ظل صمت مطبق يخيم بظلاله على أخبار الإمارة الحاحية بتارودانت، وهو ما يفتح الباب على مصراعيه أمام مشروعية التساؤل عن أسباب هذا الصمت ودوافعه؟ خاصة وأن مواقف بعض هذه الدراسات من حركة الشيخ يحيى الحاحي -وإن جاءت عرضا -كانت بدورها مطبوعة بالتناقض، ويبدو عليها الميل إلى التأثر بمواقف الحركات والإمارات موضوع دراستها، وهو ما يضع شرط الموضوعية في الدراسة التاريخية على المحك.

يزيد من تعقيد أمور التأريخ للإمارة الحاحية، تناول بعض من أخبارها ونشاطاتها من طرف مؤرخين أجانب، كانت أبرزهم السيدة جاك مونيي في دراستها القيمة "Le Maroc saharien des origines à 1670". وكان من سوء حظ الإمارة أن وقعت

(*) أنظر دراستنا حول "صعوبات التأريخ المحلي بالمغرب..."، مجلة أمل، عدد مزدوج، 22-23، السنة الثامنة: 2001، ص.140-148.

هذه الباحثة - على تمكنها وحنكتها - في خلط بصدد بعض الأحداث والتواريخ والشخصيات، وحدث أن نقل عنها باحثون مغاربة من دون إيلاء ما يكفي من العناية لنقد وتمحيص المعلومات التي أوردتها، فتم بذلك تعبيد الطريق أمام تواتر الأخطاء، وتناسل الاضطراب والخلط بشأن الشيخ يحيى وحركته في عدد غير يسير من الأبحاث والرسائل، على اختلاف مستوياتها، والتي أنجزت داخل الجامعات المغربية.

اعتبارا لكل ما تقدم، ومن دون تغييب الوعي باعتبارات الانتماء الجغرافي والحضاري لمدينة تارودانت، ولجنوب المغرب بصفة عامة، آثرنا التصدي لجمع أخبار حركة الشيخ يحيى الحاحي وملامح إمارته التي أقامها بتارودانت، على خلفية كشف التناقضات المشار إليها، وأملا في تصحيح جانب من الخلط والاضطراب الذي اعترى التأريخ لها. سبيلنا إلى ذلك الانطلاق من قراءة جديدة، مغايرة، نقدية، وواعية لمختلف الوثائق والمصادر المتداولة والتي سبق استثمارها، من أجل الوصول إلى صياغة صورة مغايرة للحركة ولأهداف، وأسس، ومنطلقات قائدها تقترب بنا قدر الإمكان من "حقيقة" ما جرت عليه أحداث ووقائع وأطوار حياة الشيخ يحيى وإمارته بتارودانت، ثم العمل أيضا على استثمار بعض الوثائق المحلية الجديدة - والتي لم يسبق استثمارها حتى الآن - من أجل إثبات وتأكيد المنحى الذي نهجناه في هذا العمل. وأملنا كبير في أن نكون قد وفقنا في مسعانا هذا، وساهمنا - ولو بالقدر اليسير - في إعادة قراءة وكتابة إحدى حلقات تاريخنا الوطني، الذي لا محالة أنه يحتاج إلى مجهود جبار لإعادة قراءة وترتيب وتصحيح كثير من أحداثه ومجرياته.

والله الموفق.

نور الدين صادق

تارودانت في 02 **يناير** 2007

القسم الأول

في البحث عن جذور ثورة الشيخ يحيى الحاحي

الفصل الأول

فقدان المخزن السعدي لمشروعية الحكم، أو : مشروعية التفاف القبائل حول الزوايا

1 - الصراع السياسي لمغرب بداية القرن 17 م وعوامل تأجيجه:

1-1 التطاحن على العرش بين أبناء المنصور:

بمجرد وفاة السلطان أحمد المنصور (1012هـ/ 1603م)، انطلقت الفتنة من عقالها ليعم المغرب جو من التطاحن السياسي، دشنه أبناء السلطان الهالك: محمد الشيخ المامون، أبو فارس، وزيدان.

لقد سارع سكان فاس إلى بيعة زيدان، يتقدمهم العلماء والأعيان (16 ربيع الأول 1012 هـ)، وكتبوا بذلك لأهل مراكش. لكن هؤلاء رفضوا هذه البيعة وبادروا إلى مبايعة أخيه أبي فارس في نفس الأسبوع[1]. خلال هذه الفترة كان محمد الشيخ المامون، وهو أكبر أبناء المنصور، يقبع بسجن مكناس حيث تركه والده، فمكنه القائد أحمد بن منصور العلج من اللحاق بأخيه أبي فارس بمراكش[2].

على إثر هذا الخلاف أصدر قاضي فاس ومفتيها، فتواه تصريحا بحديث "إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما"[3]. لتبقى الكلمة الأخيرة لمقارعة السلاح. حيث سرعان ما بعث أبو فارس بجيش أهل مراكش يقوده ابنه عبد الملك، وأخوه المأمون لمحاربة زيدان. وسرعان ما انهزم هذا الأخير ليسرع فارا في اتجاه تلمسان طالبا دعم أتراك الجزائر.

---

(1) الإفراني محمد الصغير، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تحقيق عبد اللطيف الشادلي، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، 1998 ص. 282. يشير أوغست كور إلى أن هذه البيعة تمت بعد شهرين من بيعة زيدان، أنظر:

Cour Auguste, Etablissement des dynasties des chérifs au Maroc et leur rivalité avec les turcs de la régence d'Alger, (1509-1830), Paris, Ed. Leroux, 1904, p. 149.

(2) نقل الإفراني هذه الرواية عن صاحب "زهرة الشماريخ"، وقد أورد رواية أخرى تفيد بأن الذي أطلق سراح المامون وبعثه إلى أبي فارس هو الباشا جودر، الافراني، النزهة، ص. 283.

(3) نفس المصدر، ص. 282.

هكذا لم تمض على وفاة المنصور أزيد من أربعة أشهر، حتى قضى أبناؤه على سياسته القاضية بإبعاد كل من الأتراك والمسيحيين الإسبان عن شؤون المغرب الداخلية. فالأتراك لم يكونوا ينتظرون غير الفرصة السانحة للتدخل - وقد وفرها لهم زيدان - بينما لن يتأخر التدخل الإسباني كثيرا.

إثر دخول الجيش المراكشي مدينة فاس، سارع محمد الشيخ المأمون إلى إعلان نفسه ملكا عليها (شعبان 1012 هـ/يناير 1604م). وبدأ عهده بالتخلص من أنصار أخيه زيدان[4]. هذا الأخير، بعد أن يئس من دعم الأتراك، قرر مغادرة تلمسان في اتجاه تافيلالت، وكانت مقر عائلة القائد عبد الصادق الذي كان من المقربين للسلطان المنصور. وبانضمام هذا الأخير لزيدان، مكّنه من طرد القائد الذي كان يحكم المنطقة باسم أخيه أبي فارس أمير مراكش .

من سجلماسة عقد زيدان العزم على دخول سوس الذي كان أخواله، عرب الشبانات، يثيرون به القلاقل رافضين الاعتراف بسلطة أبي فارس. لكن اصطدامه بالقوات التي بعث بها هذا الأخير إلى درعة (غشت 1604)[5]، جعله يعرج نحو أقا مقر زاوية سيدي عبد الله بن مبارك[6]، الذي كانت كلمته مسموعة في قبائل سوس والأطلس الصغير.. وبواسطة مجهودات هذا الصالح، انعقدت الهدنة بين زيدان وممثل أخيه أبي فارس في هذه المفاوضات، القائد عزّوز الوزكيتي،[7] على أن يتنازل لزيدان على سوس، ويحتفظ بباقي أقاليم مملكة مراكش، فتمكّن زيدان من دخول تارودانت سلمًا[8].

على إثر خلاف بين أبي فارس وأخيه المامون، اجتاحت قوات هذا الأخير مراكش بقيادة ابنه عبد الله، ليفر أبو فارس تاركا عاصمته (دجنبر 1606م/شعبان 1015هـ). وقد عاث جنود عبد الله في المدينة فسادا، فاستباحوا الحرمات وسبوا النساء. فجد أهل مراكش في طلب نجدة زيدان، الذي أعلن ملكا على المدينة (27 فبراير 1607). إلا أن

---

(4) نفس المصدر، ص. 284.

(5) Les Sources inédites de l'Histoire du Maroc (S.I.H.M) 1ère série, Angleterre, T: II, p. 351.

(6) ولد سيدي عبد الله بن مبارك حوالي سنة (936 هـ 1530/م)، قال عنه التمنارتي (الفوائد الجمة) "كان من أعلام الدولة المنصورية ببلاد المغرب... معظما عند ملوكها وعظمائها، مرجوعا إليه في حوادث الأمور عند نزولها واعترائها" وهو حفيد سيدي محمد بن مبارك الذي أمر قبائل سوس بالانقياد للسعديين في بداية دولتهم .كانت وفاة سيدي عبد الله: سنة (1015 هـ/1606. ويبدو أن الأمر اختلط على السيدة مونيي في كتابها (Le Maroc Saharien...) فجعلت ولادته حوالي 1549م. أنظر ترجمته عند السوسي، المعسول ج. 18، ص. 173-175.

(7) هو عبد العزيز بن سعيد المزوار الوزكيتي الورززاتي. ولد بتارودانت (1549)، دخل في خدمة المخزن أيام المولى عبد الله الغالب، ثم اتخذه أحمد المنصور مستشاره الخاص. ناصر زيدان، لكنه لمّا يئس اعتزل في حصن عائلته بجبل درن، حيث كان يخفي ثرواته، وقد اعتقدت مونيي أن هذا الحصن ربما يوجد بجبل سيروا.

Meunie (J.D), Le Maroc saharien des origines à 1670, librairie KLINCSIEK, 1982, p. 94.

(8) Meunié, le Maroc saharien, p. 594.

عبد الله تهيأ للأخذ بثأره، فتمكن من أن يهزم قوات عمه زيدان في معركة وادي تفلفلت، لتدخل قواته من جديد مدينة مراكش (10 دجنبر 1607)، في حين فر زيدان نحو سوس.

وفي مراكش ارتكب عبد الله بن المامون وجنوده، من الأفعال الشنيعة، أكثر مما فعلوه خلال دخولهم الأول. فالتجأ أعيان المدينة إلى جبل جليز، وبايعوا محمد بن عبد المومن بن السلطان محمد الشيخ المهدي[9]، الذي تمكن من إجلاء قوات المامون، ثم دخل مراكش (3 فبراير 1608). إلا أن صفحه عمّن تخلف من جنود جيش فاس، أثار غضب المراكشيين، فكتبوا من جديد إلى زيدان يستقدمونه من سوس، فسارع إلى تلبية طلبهم ودخل مراكش مرة أخرى(24 ماي 1608م/1016هـ).

سرعان ما تأهب عبد الله بن المأمون وزحف نحو مراكش فالتقى بقوات عمه زيدان في معركة وادي أبي رقراق (1017هـ 1609/م) لكنه انهزم، فتعقبه قائد قوات زيدان، مصطفى باشا، وسبقه إلى فاس ليدخلها دون مقاومة. بعد ذلك توجه نحو القصر الكبير، حيث كان يجتمع كل من المأمون وابنه عبد الله، وأخيه أبي فارس. لكن المأمون أسرع بالفرار نحو العرائش ومنها إلى إسبانيا، طالبا دعم ملكها فيليب الثالث، الذي اشترط عليه تسليم العرائش للإسبان فقبل. أما عبد الله وأبو فارس فإنهما احتميا في دار ابن مشعل، وانتظرا عودة زيدان إلى مراكش، التي ثارت في غيابه، ليزحفا نحو فاس. فتصدى لهما مصطفى باشا، لكنه قتل[10] ونهب جيشه، فتمكن عبد الله وعمه من العودة إلى فاس (ربيع الثاني 1018 هـ /10يوليوز 1609م). لكن أبا فارس لن يتمتع طويلا بحلاوة هذا النصر، حيث سيشرف ابن أخيه عبد الله على اغتياله خنقا (جمادى الأولى 1018 هـ/غشت 1609م)[11].

بإزاحة أبي فارس، بقي الصراع منحصرا داخل البيت السعدي بين طرفين: المأمون ومن بعده ابنه عبد الله، الذي سرعان ما انفلت من يده زمام الأمور لتشهد فاس فترة طويلة من الاضطرابات والمحن، وتعاقب على حكمها عدد من الثوار والمتغلبين،[12] فلم يستقر بها قرار حتى دخلها المولى الرشيد العلوي. أما الطرف الثاني فهو زيدان، الذي لم يتمكن منذ ذلك الحين من بسط نفوذه على فاس. فاستقر بمراكش ليواجه بدوره

(9) الإفراني، مصدر سابق، ص.287، وقد أورد في نفس الصفحة رواية صاحب "شرح زهرة الشماريخ" التي تفيد أن الثائر المبايع بجبل جليز اسمه أبو حسون وهو من أولاد السلطان أبي العباس الأعرج. وهي الرواية التي أخذ بها أوعست كور، حيث ذكر أن أهل مراكش بايعوا أبا الحسن علي بن زيدان بن الأعرج: Cour (A), Etablissement des Dynasties... op.cit p. 151.

(10) الإفراني، مصدر سابق، ص. 288.

(11) نفس المصدر، ص. 289.

(12) من بين الثوار الذين حكموا فاس خلال هذه الفترة: سليمان بن محمد الزرهوني، محمد المربوع اللمطي، محمد بن الشيخ زغودة .. أنظر هذه الأحداث عند الافراني، النزهة، ص. 338 وما بعدها.

ثورات صلحاء الجنوب (ابن أبي محلي، أبو حسون السملالي، يحيى بن عبد الله الحاحي...) الذين زعزعوا أركان دولته، وقلموا من مجال نفوذه مناطق شاسعة. فلم تعرف دولة زيدان أبدا سبيلا إلى الاستقرار، حيث "لم يخل قط في كل سنة من أيام دولته من هزيمة عليه، أو وقيعة بأصحابه(13)". وقد وصف مبعوث تجاري هولندي أوضاع مراكش في أواسط 1608 قائلا : "في ظرف أربعة عشر شهرا، تعاقب على حكم هذه المدينة (مراكش) ستة ملوك، إلى حد أنها أصبحت مخربة من الداخل والخارج ... فكل الطرق مقطوعة بسبب الحرب وغير آمنة،... وليس هناك أي أمل في السلم، فهؤلاء الأمراء الخمسة يتصارعون على الحكم بتهور لا يُصّدق". (14)

إن الاستعراض السريع والمختصر لهذه الأحداث والصراعات يبّين مدى انحلال سلطة وكيان المخزن السعدي، وفي زمن قياسي. وهو ما يدفع إلى التساؤل عن الأسباب الكامنة وراء هذا التفكك السريع لهيبة الدولة، مع أنه لم يمض وقت طويل على تركيزها من طرف السلطان أحمد المنصور الذي"شمخ مُلكه وكثر جيشه وطالت مدته ولا بقي له مُنازع"(15).

1-2 مشكلة ولاية العهد:

لعل مشكلة ولاية العهد ظلت من أكبر المشاكل العالقة التي واكبت حياة الدولة السعدية منذ تأسيسها.(16) فرغم أن محمد القائم بأمر الله عهد لأبنائه بقاعدة لتوارث الخلافة،(17) نجد صراعات الأسرة السعدية تتجدد وتتأجج عند كل عملية انتقال للسلطة. حيث يسعى كل متول للعرش إلى إقصاء إخوته وأبناء عمومته ليخلو الجو لابنه(18). ويكفي أن نشير في هذا الباب إلى ما وقع بين ابني القائم : أحمد الأعرج ومحمد الشيخ، ثم بين المتوكل وعميه عبد الملك وأحمد المنصور(19)... لكن صراعات أبناء المنصور

(13) الإفراني، النزهة، ص. 346.

(14) S.I.H.M, Pays Bas, I, p. 279

(15) المؤرخ المجهول، تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية، تحقيق عبد الرحيم بنحادة، مراكش 1994، ص. 68.

(16) إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة، البيضاء 1993، ج، 2، ص. 329.

(17) الإفراني، النزهة، ص.51. ناقش الأستاذ عبد المجيد القدوري هذه الرواية: "الأكبر فالأكبر" وطرح تساؤلات عن مدى صحتها، نظرا لغياب أية وثيقة مكتوبة بهذا الصدد، وتساءل عما إذا كانت مجرد حجة استعملها عبد الملك لاستمالة العلماء ضد ابن أخيه محمد المتوكل؟ أنظر عبد المجيد القدوري، ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليت، منشورات عكاظ، الرباط 1991، ص. 26.

(18) عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، الطبعة الثانية، البيضاء 1977، ص. 288.

(19) يشير ميج إلى أن أزمة وراثة العرش أدت إلى اغتيال 8 ملوك سعديين من أصل 11 ملكا، أنظر:
Jean-Luis Miège, le Maroc, que sais-je, n° 439, P.U.F 1966, p. 35.

تجاوزت مثيلاتها، حيث أججها إقدامه على تقسيم البلاد إلى إمارات عهد بحكمها إليهم، فقد ولى كبيرهم محمد الشيخ المأمون على فاس وقلده ولاية العهد، ثم عاد فعزله وسجنه. وعقد لأبي فارس على مراكش وسوس، أما زيدان - وهو أصغرهم - فعقد له على تادلا،[20] ثم ولاه من جديد على فاس بعد عزل أخيه المأمون.

لكن هل يكفي إقدام المنصور على تقسيم البلاد بين أبنائه لتفسير التفتت السريع لهذا الصرح الذي حاول، هو نفسه، جاهدا تدعيمه بقوة وعنف؟ أو لم تكن البلاد مقسمة من قبل بين أبيه محمد الشيخ المهدي، خليفة سوس، وعمه أحمد الأعرج، خليفة مراكش، مع أنها لم تنته إلى ما انتهت إليه الآن من التجزئة والتطاحن؟

1-3 السّعديّون وأزمة المشروعية :

اعتبر جاك بيرك صراعات مطلع القرن 17م التي "تتيه فيها الملاحظة، ويبدو التحليل أمامها عاجزا"، اعتبرها "بحثا عن المشروعية. (المفتقدة) التي كان الكل يريدها"[21]. لكن يبدو أن السعديين عانوا من هذه المشروعية حتى في أقوى فترات حكمهم[22]. فقد لاحظ روبير مونطاني أن "الأخوين أحمد الأعرج ومحمد الشيخ ما إن استقر لهما الأمر، وتمكنا من السلطة الزمنية ... وتزايدت مطالبهما، وشرعا في فرض الضرائب حتى كفا في أعين البربر عن يكونا قائدين للجهاد. ولم يعد سوس ينتظر غير فرصة مواتية لإعلان ثورته ضد سلطتهما"[23].

يسير مييج في نفس المنحى عندما يشير إلى أن السعديين الذين أوصلتهم إلى الحكم اضطرابات المغرب الوطاسي، لم يتمكنوا أبدا من القضاء على هذه الاضطرابات. لقد بنى كل من مونطاني ومييج حكمهما على ما عرفه عهد السعديين من كثرة الثوار والقائمين عليهم، حتى في عهد أقوى سلاطينهم: أحمد المنصور. لكن لا ينبغي أن نغيب هنا خلفياتهما الكولونيالية، الرامية إلى تأكيد نزعة «البربر» الطبيعية للاستقلال عن الحكم المركزي، وبالتالي محاولة إثبات عدم تأصل جذور السّلطة المركزية في المغرب[24].

(20) عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفاء: مختصر الجزء الثاني، تحقيق عبد الله كنون، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، المطبعة المهدية، تطوان، 1384-1964، ص، 35.

(21) Berque (J), Ulémas, Fondateurs Insurgés du Maghreb XVIIe siècle, p. 22, Sindbad, Paris 1982.

(22) عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا. . ، ص. 93.

(23) Montagne (R), Les berbers et le Makhzen dans le sud du Maroc, ed : Afrique-Orient, Casablanca 1989, p. 110

(24) Miège (J.L), le Maroc, p. 32

1-4 انعكاسات السياسة الجبائية:

يربط مونطاني كما رأينا بين بداية فرض الضرائب من طرف السعديين، وظهور الرغبة في التخلص منهم لدى أهل سوس. من تم تكون سياسة السعديين الجبائية إذن لعبت دورا كبيرا في إفقادهم لهذه المشروعية؟ وربما قد يبدو انفجار الأوضاع بعد وفاة المنصور، تبعا لذلك، أمرا مقبولا. خاصة وأنه أعاد تنظيم الجبايات على أسس جديدة، وزاد في مقاديرها. ويبدو أن هذا العمل من بين ما أثار عليه- وعلى أبنائه من بعده - حنق قبائل البربر، على الخصوص، الذين سدوا عليه "طريقهم وطلعوا إلى قرون الجبال"[25]. أثناء حملته على سوس(988 هـ/1580م) قصد ترتيب ديوان جباياته.كما واجهوا جيشه بعنف حتى "جرى الدم كالماء"[26].

لقد كانت هذه السياسة الجبائية على رأس النقط التي أثارها يحيى الحاحي، في إحدى رسائله إلى زيدان بن المنصور، حيث خاطبه: "فما راعني إلا وقد أخفرت في ذمة الله وأماني الذي عقدته للناس، فمن مأسور ومقيد ومطلوب بمال"[27]. وقد خصص زيدان في رسالته الجوابية حيزا هاما لمناقشة مقادير الخراج المفروضة محاولا تبريرها، لكنه أيضا يعترف برفض القبائل لها، وامتناعهم عن أدائها: "اعلم أن العرب استطالوا... ولو طالبناهم بمجرد العشر مدة هذه الفتن بالمغرب، لأذى ذلك على أموالهم، والناس خرجت عن أطوارها وأحبوا الفتن طلبا للراحة"[28]. انطلاقا من شهادة زيدان هذه، هل يمكن اعتبار ثورات القبائل خلال هذه الفترة - سواء منها العربية أو الأمازيغية - وتخليها عن دعم السعديين، قد تم تحت وطأة هذه السياسة الجبائية المجحفة؟ ثم ما هي أسباب هذا الإجحاف الضريبي الذي كان وراء تقويض أركان الدولة ؟

حاول زيدان، من خلال رسالته السالفة الذكر، أن يدافع عن سياسة أبيه الجبائية، ويبررها بالمجهود الحربي: "ورأى (المنصور) المغرب غب تلك الفتن، قد فغر أفواهه لالتهامه عدوان: عدو عظيم من الترك، وعدو الدين الطاغية. فاضطر، رحمه الله، إلى الاستكثار من الأجناد لمقاومة الأعداء، والدب عن الدين وحماية ثغور الإسلام. فدعا

(25) إبراهيم بن علي الحساني، ديوان قبائل سوس في عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي، تحقيق عمر أفا، مطبعة النجاح الجديدة، 1989، ص. 12.

(26) م.ن، ص.12.

(27) أنظر رسالة الحاحي إلى زيدان عند الافراني، النزهة..، ص. 212-215. وكانت هذه المراسلة قبيل إعلان الحاحي خلع بيعة زيدان.

(28) يقع جواب زيدان في رسالة مطولة حاول أن يجيب فيها بإسهاب عن كل القضايا التي أثارها، أو ألمح إليها يحيى الحاحي، أنظر الافراني، النزهة، ص.215-233.

تضاعف الأجناد إلى تضاعف العطاء، وتضاعف العطاء إلى تضاعف الخراج"[29]. لكن أين نحن من هذا التبرير ونحن نعلم أن الحملات الكبرى التي خاضها أحمد المنصور لم تكن لا ضد "العدو العظيم من الترك"، ولا ضد "عدو الدين"؟

1-5 توتر العلاقات بين المخزن والقبائل:

لقد كانت الحملات الكبرى للمنصور موجهة أساسا ضد القبائل الممتنعة عن الأداء من جهة، ولفتح السودان من جهة ثانية. حيث كان ثقل الجبايات يدفع القبائل إلى الامتناع عن الأداء، وهذا الامتناع يدفع المنصور إلى الاعتماد على سياسة القوة والقتل في حقها. وقد وصف لنا الحساني كيف "جرى الدم كالماء" أثناء ترتيب ديوان قبائل سوس، كما خلد الفشتالي أمثلة كثيرة عن النتائج التي أدت إليها حركات المنصور على القبائل[30]. فالعلاقات إذن بين المخزن والقبائل كانت مبنية على التوتر، حيث يلجأ باستمرار إلى إضعاف هذه القبائل لأن في ضعفها قوته[31].

يضيف زيدان، في رسالته المذكورة، أثناء حديثه عن الإصلاح الجبائي الذي قام به المنصور: "وقد عرف الناس الحق فلم ينكره أحد من أهل الدين ولا من أهل السياسة".[32] وهذا يدفعنا إلى التساؤل عن سبب هذا السكوت، أهو فعلا ناتج عن معرفة الحق؟ ألم يكن جبروت المنصور وقوته هما اللذان أرغما "أهل الدين" (العلماء/الصلحاء) و"أهل السياسة" (رؤساء القبائل والزوايا) على انتظار وفاته ليعلنوا رفضهم، ليس لسياسته هذه فقط، ولكن لحكم أبنائه كذلك؟ أليست الصراعات والإضطرابات، التي استعرضناها سابقا، نتيجة طبيعية لعلاقات المخزن بالقبائل التي طبعها التوتر، وحكمها منطق الحديد والنار طيلة عهد المولى أحمد؟

1-6 تخلي السعديين عن الجهاد وعواقبه:

أكد زيدان، من خلال التبرير الذي قدمه، أن الذي أعطى لأبيه (أحمد المنصور) الحق في مضاعفة الأجناد، وبالتالي مضاعفة الخراج، هو واجب "مقاومة الأعداء والدب عن الدين وحماية ثغور الإسلام". ومعلوم أن السعديين، إنما أوصلتهم القبائل السوسية إلى

---

(29) م.ن، ص .222.

(30) أنظر تفاصيل هده الحركات عند: الفشتالي، مناهل الصفا، خاصة صفحات. (52-58-77-78-176-177-191).

(31) القدوري عبد المجيد، م.س، ص.31.

(32) رسالة زيدان، الإفراني، م.س، ص.22.

السلطة من هذا الباب: باب الجهاد. لكن أين نحن، في مطلع القرن 17 م، من جهاد أوائل السعديين؟ بل أين نحن من هذا الجهاد حتى في عهد أحمد المنصور نفسه ؟ فهذا السلطان، وهو في أوج عظمته، لم يفكر في تنظيم حملة ضد الثغور التي ظلت محتلة مثل: طنجة، وسبتة، ومليلية، والجديدة؟[33] ولم يكتف أبناء المنصور بالتخلي عن الجهاد، بل تجاوزوه إلى التحالف مع أعداء المغرب التاريخيين.

فهذا المأمون رأيناه ملتجأ إلى إسبانيا، طالبا دعم ملكها فليب الثالث، الذي جعل التنازل عن العرائش لإسبانيا شرطا أساسيا لتدخله. بل إن المأمون لم يكتف بالتنازل عن هذه المدينة، وإنما بعث قائده الجرني ليخليها من سكانها، ولما امتنعوا، نزل فيهم القائد الجرني قتلا مما اضطر الباقين إلى الخروج. ونحن نعلم ما خلفه تنازل المأمون عن العرائش في نفوس المغاربة من أثر سيء: "وقع في قلوب المسلمين من الامتعاض من أخذ العرائش أمر عظيم، وأنكروا ذلك أشد الإنكار"[34]. بل أن أشياخ بلاد الفحص تآمروا على قتله جزاء له على "تمليكه بلاد الإسلام للكفار[35]". فضلا عن أن حدث تسليم العرائش أعطى الشرعية لقيام عدد كبير من الثوار على رأسهم ابن أبي محلي.

وقد سلف أن رأينا زيدان بمجرد طرده من فاس أول مرة، لم يتوان في التوجه نحو تلمسان طالبا دعم الأتراك. كما ورد عليه، بعد ذلك، - وهو بسوس (1604) - رسول السلطان العثماني، مراد الثالث، مطالبا إياه الوفاء بالاتفاق المبرم بينهما إبان طلب زيدان لدعم الأتراك؟[36] بل إن زيدان بدوره نهج سياسة المهادنة تجاه الدول الأوربية، وعقد مع الهولنديين معاهدة تحالف منذ (1610).[37] وسرعان ما قرر هؤلاء احتلال المعمورة وتحصينها. وقد ظلت سفنهم الحربية تتردد بين آسفي والمعمورة في انتظار إذن زيدان ببداية الاحتلال[38]. غير أن انشغال هذا الأخير بثورة إبن أبي محلي، أخر هذا الإذن.

ارتبط زيدان كذلك بعلاقات صداقة مع حاكم البريجة البرتغالي الدون ماسكاريناس، الذي سارع إلى بعث ابنه الأكبر، الدون فرانسيسكو، على رأس قوة قوامها مائتا فارس

(33) عبد اللطيف الشاذلي، الحركة العياشية، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء 1982، ص.45.
(34) الإفراني، النزهة، ص. 198.
(35) م.ن، ص. 199.

(36) Cour (A), Etablissement. .op cit, p. 151.
(37) Miège (J.L), Le Maroc, p 33
(38) S I.H.M, France, II, p. 568

وجندي، وذخائر وفيرة وبارود، وسفينة قمح... بهدف دعم زيدان أثناء محاصرة يحيى الحاحي له بآسفي[39].

أين نحن إذن من التبرير الذي قدمه زيدان نفسه لسكوت **"أهل الدين وأهل السياسة"** عن إجحاف أبيه (المنصور) والقبول بشرعية حكمه ؟ ألم يكن هذا الارتماء في أحضان أعداء المغرب (الإسبان – البرتغال – الأتراك) من طرف أبناء المنصور، وحده كافيا ليبرر ثورات القبائل، وحركات الصلحاء (ابن أبي محلي، يحيى الحاحي، أبو حسون السملالي...) في محاولات لإحلال حكم جديد محل أواخر السعديين المفتقدين لكل شرعية؟

2 - تأزم الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية:

2-1 الغزو الأجنبي وانعكاساته على التجارة المغربية:

كانت الكشوفات التي شرع فيها البرتغاليون والإسبان وراء تقلص أهمية تجارة القوافل العابرة للصحراء منذ نهاية القرن 15 م،[40] وكانت المصاعب الاقتصادية الناجمة عن هذا التحول سببا في توجيه سلاطين السعديين حملاتهم في اتجاه واحات الجنوب: توات 1581م، ثم **تومبوكتو وكاغو** خلال حملة المنصور على السودان (1591م)، بحثا عن الذهب. وإذا كان المغرب قد ضمن استمرار وصول قوافل العاج والذهب والعبيد خلال هذه المرحلة، نظرا لقوة سلطة المخزن المركزي، فإن انهيار هياكل هذا المخزن- كما رأينا – سمح، بل ويسر احتلال القوى الأوربية لثغور البلاد. حيث بالإضافة إلى المستعمرات القديمة **(مليلية، سبتة، طنجة والجديدة)** ستشهد سنتا 1610 و1614 احتلال الإسبان لمركزين جديدين هما على التوالي: **العرائش والمعمورة.** وقد أغلق هذا الاحتلال في وجه المغرب آخر منافذه التقليدية نحو البحر[41]. حيث كانت باقي الموانئ: آسفي، ماسة، تطوان... تحت نفوذ قوى سياسية جديدة تستفيد منها وحدها، فضلا عن أن بعدها عن كثير من الأقاليم يجعل أهميتها محدودة بالنسبة لتلك الأقاليم[42].

لقد ترتب عن هذه الوضعية الجديدة فقدان المغرب لسيطرته على علاقاته التجارية مع أوربا، والتي كان يستفيد منها في تصريف مستورداته من البضائع السودانية (تبر،

(39) Ricard (R), Mazagan et le Maroc, sous le règne du sultan Moulay Zidan, Paul Geuthner, Paris 1956, p. 44.
(40) Miège (J.L), op.cit, , p . 32.

(41) عبد اللطيف الشادلي، الحركة العياشية، ص. 41.
(42) نفس المرجع، ص 41.

عاج، عبيد...)، وكذا في جلب بعض المواد الأوربية (أسلحة، أثواب، أواني...) التي كان يوجهها نحو بلاد السودان. وكان ذلك يعني فقدانه لدور الوساطة التجارية بين إفريقيا وأوربا والتي ظلت لقرون أساس استقرار نظامه الاقتصادي.

2-2 تحول طرق التجارة الصحراوية:

عرفت طرق التجارة الصحراوية تقلصا كبيرا في نشاطها بفعل خروج توات عن سلطة أواخر السعديين، وخضوعها لقوى سياسية وجهت تيارها التجاري نحو السواحل المتوسطيّة الخاضعة للأتراك.[43] وسرعان ما هيمنت إمارات صلحاء الجنوب على المحور الأطلنتي، حيث وجدت في التجارة العابرة للصحراء قاعدة اقتصادية تدعم نفوذها السياسي[44]. فقد تمكن **أبو حسون السملالي**، مثلا، من مراقبة محور تغازة، ووجه البضائع السودانية المنقولة عبره في اتجاه ميناء ماسة الذي قصدته سفن الإنجليز والفرنسيين والهولنديين. وقد كان من النتائج الحتمية لهذه التحولات: تضرر واضح للتجارة القافلية التي بنى عليها المغرب توازناته الاقتصادية، وانخفاض كبير في كميات البضائع السودانية (ذهب، عاج، عبيد...) التي كانت تموِّن المدن المغربية، وخصوصا منها تلك التي ما زالت تحت نفوذ السعديين. ففي الأيام الأخيرة لحكم زيدان، لم يعد ذهب السودان سوى ذكرى غابرة في مراكش وفاس[45]. وقد ترتب عن هذا النقص في كميات الذهب انهيار نظام التبادل الذي أقامه السعديون، وتحكموا بمقتضاه في سعر هذا المعدن الثمين[46]. الشيء الذي كانت له انعكاسات وخيمة ومتعددة على اقتصاد المغرب.

صرح زيدان في رسالته إلى يحيى الحاحي، السالفة الذكر: "ليت شعري لو طالبنا نحن الرعية اليوم بسعر الوقت الذي طلع إلى أضعاف مضاعفة...". لاشك أن التحولات التي عرفتها التجارة العابرة للصحراء كانت من ضمن أسباب ظاهرة ارتفاع الأسعار هذه التي يشير إليها السلطان زيدان، لكن هل تكفي وحدها لتفسير هذا الارتفاع الذي يبدو أنه بلغ حدا لم يطقه المغاربة ؟ إن تفسير هذه الظاهرة لن يكتمل إلا بالوقوف عند التحولات المناخية التي شهدها مغرب مطلع القرن 17م، وما ترتب عنها من قحوط ومجاعات

---

(43) نفس المرجع، ص. 50.

(44) Abitbol Michel, Tombouctou et les Arma, p. 197, Maisonneuve et larose, Paris 1979.

(45) Ibid, p. 197

(46) Boutaleb Brahim et autres, Histoire du Maroc, p 220, Hatier, Paris 1967.

وأوبئة. وهو موضوع ما تزال دراسته جديدة في المغرب، فضلا عن أنها لا تغطي فترات هامة من تاريخه[47].

3-2 توالي القحوط والأوبئة:

عاش المغاربة طوال تاريخهم في رهان دائم مع الطبيعة التي تتقلب بين العطاء والشح، بين النعيم والبؤس. وكلما حدث قحط يأتي في أعقابه الجوع، وتتلوه الأوبئة الفتاكة[48]. لكن يبدو أن أزمة نهاية القرن 16 م ومطلع القرن 17 م، فاقت نظيراتها. حيث أدى القحط إلى هجرة أعداد وفيرة من السكان تاركين أراضيهم. ومما زاد الأوضاع تفاقما، اعتماد القبائل المغربية أساسا على النشاط الزراعي والرعوي، حيث يؤدي القحط وجوبا إلى انهيار الإنتاج الفلاحي، وبالتالي انتشار المجاعة التي يعقبها انتشار الأوبئة .خاصة وأن الاقتصاد ظل تقليديا يعتمد على الأساليب الزراعية القلالة، المعتمدة على تقنيات بسيطة عنصرها الأساسي المحراث الخشبي الذي لم يطرأ عليه تغيير منذ عهد نوح[49]. وقد كان لوباء هذه الفترة وقع كبير على سكان المغرب الجنوبي على الخصوص، حيث أدى إلى كثرة الوفيات في أوساطهم، وبالتالي حدث انهيار ديمغرافي مهول. وقد خلف لنا قاضي تارودانت أبو زيد عبد الرحمان التمنارتي[50] وصفا دقيقا لوباء هذه الفترة حيث كتب: **"ولما وقع هذا الطاعون بالمغرب سنة خمس إلى ستة عشر وألف، كان أول ما وقع بالحواضر. فأما أهل فاس فصبروا... فارتفع عنهم من سنته ... وأما أهل مراكش وتارودانت، فتفرقوا في البادية والجبال، فكان أكثر وقوعه بهم، وانقرض جل أعيانهم، حتى استولى الخراب من ذلك على الحاضرتين، ثم لم يزل يعود إليهم سنة بعد سنة... مدة اثني عشر عاما... وبه وقع الجزع الهائل، والكمد**

(47) يقتصر الأمر بالنسبة للقرنين 16 و17 على

Rosenberger (B) et Triki (H), Famınes et épıdémies au Maroc au XVI et XVIIe sıècle, Hespris, vol XIV Fasc. Unique, 1973, p: 109 Et Hesperis vol XV, Fasc. unıque 1974, p. 5 et 6.

أما بالنسبة للقرنين 18 و19 فالأمر يقتصر على :محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1992.

(48) محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب، ص.34.

(49) محمد الأمين البزاز، م.ن، ص. 30.

(50) هو أبو زيد عبد الرحمان بن محمد المغافري الجرولي التمنارتي، ورد إلى تارودانت سنة 991 هـ لأخذ العلم، فتتلمذ على عدد من علمائها كأبي عمران موسى بن أحمد التودماوي، وأبي زكرياء يحيى بن عبد الله الحاحي...، وعلى عهد هذا الأخير حين ثورته على زيدان، تولى التمنارتي قضاء تارودانت، ثم عزل عنه ليتولاه حين سيطرة أبي حسون السملالي عليها .كانت وفاة التمنارتي سنة 1060 هـ.

الطائل"[51]. لقد اعتاد المغاربة - عامتهم وخاصتهم - على اعتبار الوباء عقابا من السماء له علاقة مباشرة بانتشار المناكر[52]. ولا ينبغي أن نغيب، في هذا الباب، سلوكات أبناء المنصور الذين اشتهروا بفسقهم وفساد أخلاقهم. فقد وصف المأمون بكونه "**قبيح الأفعال غدارا... مسرعا إلى الفساد في القينات والصبيان والأولاد، مصرا على الخمر والحشيش...**"[53]. ورغم ما اشتهر به زيدان، في المصادر المغربية من سعة إطلاع ومشاركة في العلم، فإن المصادر الأجنبية المعاصرة له أوردت عنه ممارساته الأخلاقية المشينة[54]. ومما يؤكد هذه الممارسات، دفاعه المستميت من خلال رسالته إلى يحيى الحاحي، السالفة الذكر، على أن "**السلطان لا ينعزل بالفسق والجور...**"! كما يشهد في حق أسلافه "**وكان عمنا عبد الملك، رضي الله عنه وسمح له، على ما كان عليه واشتهر به إعلانا... وكان والدك (عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم) في دولته وبيعته، ولم يستنكف من ذلك، ولا ظهر منه ما يخالف السلطنة.**" من حقنا إذن أن نتساءل عما إذا كان تراكم مثل هذه الممارسات، وتزامنها مع تتابع الوباء سنين عدة، وراء ترسيخ الاعتقاد في كون هذا الوباء مجرد عقاب إلهي على فساد الحكام؟ ألم يكن هذا الاعتقاد كفيلا بإقناع المغاربة بعدم كفاية ومشروعية أواخر السعديين؟ ألم يكن كل ذلك وراء دفعهم للبحث عن سلطة بديلة؟

تضافرت إذن عوامل كثيرة ومتشعبة لتجعل المغاربة يعيشون ظروفا عصيبة لا يحسدون عليها: فانهيار الكيان المخزني، وانعدام الأمن، من جراء تطاحنات المتنافسين على العرش، والجزع من الأجنبي الذي فغر فاه لاحتلال الثغور، وعجز أبناء المنصور عن رده، بل وتحالفهم معه؛ والإجحاف الضريبي، وارتفاع الأسعار، وتقلص النشاط التجاري، وانهيار المحصول الفلاحي، وانتشار الوباء. كلها عوامل كانت كفيلة بإطلاق الفتنة من عقالها. فأواخر السعديين لم يعودوا يحظون في أعين رعاياهم بنفس درجة الاحترام التي تمتع بها أوائلهم، كما لم يعودوا يمثلون تلك السلطة القادرة على ضمان الاستقرار وحماية دين وأرض الإسلام. فكفوا بذلك عن أن يكونوا أسوة بإمكانها أن تكون قدوة للرعية. ومن تم فقدوا عناصر الشرعية. فاتجه المغاربة نحو البحث عن

(51) عبد الرحمان التمنارتي، الفوائد الحمة بإسناد علوم الأمة، ورقة 22، مخطوط خاص.

(52) محمد الأمين البزاز، م.س، ص.347.

(53) المجهول، تاريخ الدولة السعدية...، ص.69.

(54) اشتهر زيدان بممارسة اللواط، حيث احتوى بلاطه على عدد كبير من الصبيان الحسان ..أنظر :

Ricard (R.), Mazagan, op cit p. 40 aussi, S I.H M; Angleterre, III, p. 66.

زعامات جديدة تتوفر فيها شروط العلم والصلاح والغيرة على الإسلام وبلاده، والقدرة على الجهر بتغيير المنكر والدعوة إلى الجهاد. أي تتوفر فيها عناصر الشرعية المفتقدة. ومن تم توجهت أنظارهم نحو الصلحاء الذين كان نفوذ زواياهم يعرف نموا متزايدا.

3 - تنامي الدور السياسي للزوايا وعوامله:

3-1 الحركة الصوفية وانتشار الزوايا بالمغرب:

ظهرت الحركة الصوفية في الشرق الإسلامي خلال القرن 8 م، ثم انتقلت تأثيراتها إلى المغرب على يد حجاج الأماكن المقدسة منذ نهاية القرن (4 هـ/11م)[55]. حيث انتشر تأثير مدرسة أبي القاسم الجنيد على يد عبد الله بن ياسين مع مطلع القرن (5 هـ/11م)[56]. وقد ظل التصوف المغربي تحت التأثير المشرقي إلى حدود القرن (7 هـ/13م). لتبدأ مرحلة "**مغربة**" التصوف على يد **المولى عبد السلام بن مشيش**[57]. وقد أعطى أبو الحسن الشاذلي[58] دفعة قوية للتصوف المغربي، حيث وحد بين مبادئ شيخيه: عبد السلام بن مشيش، ومحمد بن حرزهم، ليؤسس طريقة جديدة عرفت باسم الشاذلية. وقد وصل التصوف المغربي ذروته مع محمد بن سليمان الجزولي[59] المتوفى سنة (870 هـ/1465م)، الذي أعطى دفعة جديدة للطريقة الشاذلية. فما إن أسس زاويته **بأفوغال** في حاحة، حتى تفرعت عنها زوايا كثيرة في مختلف أنحاء المغرب تتبع الطريقة **"الشاذلية-الجزولية"**.

من المؤكد أن تاريخ ظهور الزوايا بالمغرب يعود إلى القرن (7هـ/13م)، رغم أنها عرفت حتى قبل هذا التاريخ تحت أسماء مختلفة **"دار الكرامة"**، **"دار الضيوف"**[60]. لكن انتشارها لم يتم إلا في عهد بني مرين (ق. 8 هـ/14م)، وقد لعب سلاطين المرينيين دورا كبيرا في هذا الانتشار، رغم جنوح البعض إلى مخالفة هذا الرأي، حيث اعتبر أن ظهور الزوايا جاء كرد فعل على **"السياسة الشرفاوية"** التي تبنتها الدولة المرينيّة في

(55) طريف محمد، مؤسسة الزوايا بالمغرب الإسلامي، ص. 20، المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، ع.1، س.1، 1986.
(56) الشاذلي عبد اللطيف، م .س، ص.74.
(57) طريف محمد، م .س، ص.21.
(58) أبو الحسن علي بن عبد الله بن جبار الشاذلي، مؤسس الطريقة الشاذلية في التصوف، وقد تتلمذ على يد الشيخ عبد السلام بن مشيش، كما تتلمذ عليه هو خلق كثير بالمغرب والمشرق، توفي بصعيد مصر أثناء رحلته إلى الحج (656 هـ/1258).
(59) هو محمد بن عبد الرحمان بن أبي بكر بن سليمان الجزولي، مؤلف "دلائل الخيرات" ومؤسس الطائفة الجزولية، استقر بزاويته التي أسسها بأفوغال، بحاحة إلى أن مات مسموما (87 هـ/1465م)، والسعديون هم الذين نقلوه إلى ضريحه الحالي بمراكش.
(60) حجي محمد، الزاوية الدلائية، ص.25، المطبعة الوطنية، الرباط 1964.

بعض مراحلها[61]. ومهما يكن من أمر فإن الفترة الذهبية لانتشار الزوايا بالمغرب وتكاثرها على نطاق واسع، تعود إلى ظروف القرن (9 هـ/15م) المتميزة بالصراعات القبلية، وضعف السلطة المركزية، وتزايد التهديد الخارجي المتمثل في استقرار المسيحيين بالسواحل المغربية[62]. وهي فترة، كما يبدو، كبيرة الشبه بالفترة التي نحن بصدد الحديث عنها، ونعني بذلك مطلع القرن (11 هـ/17م).

وإذا كانت الزوايا قد انتشرت بشمال المغرب منذ القرن 14م، فإن أي زاوية لم يرد ذكرها، بالنسبة للمناطق الواقعة جنوب الأطلس الكبير، حتى عهد الإمام الجزولي (مطلع القرن 15م).[63] حيث سرعان ما انتشرت فروع زاويته سواء في شمال المغرب : سلا، فاس، مكناس، تلمسان... وكذا في جنوب الأطلس الكبير: في (بوالرمان) عند هوارة، وماسة، وأقا[64]. وقد حافظ على إرث الشيخ الجزولي جيل من الصلحاء ورثوا عنه القطبانية، كان من أشهرهم الشيخ عبد العزيز التباع[65].

وخلال القرن (10هـ/ 16م) انتهت القطبانية في المغرب الجنوبي إلى تلميذين للشيخ التباع، سيؤسسان اثنتان من أقوى الزوايا خلال هذه المرحلة هما: الشيخ سيدي أحمد بن موسى الجزولي، والشيخ سيدي سعيد بن عبد المنعم المناني الذي استقر في أيت داود بحاحة.

2-3 بداية تدخل الزوايا في الشؤون السياسية للبلاد:

أثار التاريخ الديني للمغرب، وخاصة منه موضوع الزوايا، اهتمام عدد من الباحثين من فروع علمية مختلفة، وخاصة منهم الأجانب. فوضعوا بخصوص ظهور الزوايا وأدوارها عدة مقتربات منهجية، خلصت إلى نتائج متباينة، حيث منها من اعتبر "الزاوية" لحظة في تأسيس "السلطة"، ووسيلة للوصول إليها، بينما رأى فيها آخرون مظهرا من مظاهر التناقض الحاصل بين "المجتمع" و"السلطة": فالزاوية تظهر، حسب هذا المقترب، عندما يفقد "المجتمع" ثقته بـ"سلطة"[66].

(61) ظريف محمد، م. س، ص.50-51.

(62) Montagne (R.), les berbères. . op.cit, p. 103.

(63) Meunié (D J), le Maroc Saharien... op.cit, p. 426.

(64) Montagne (R.), op.cit, p . 106.

(65) هو أبو فارس عبد العزيز التباع المراكشي المعروف كذلك بالحرار، تتلمذ على يد محمد بن سليمان الجزولي فورث عنه القطبانية، وعلى يد التباع تتلمذ جيل من الصلحاء والأقطاب كسيدي محمد الغزواني، والشيخ سيدي سعيد بن عبد المنعم الحاحي... كانت وفاة التباع بمراكش سنة 914 هـ.

(66) أنظر ملخص هذه المقتربات ونقدها عند: ظريف محمد، م.س. ص، 16-19،

وقد حاول أحد الباحثين المغاربة، بعد توجيه النقد لهذه المقتربات ورميها بالقصور، طرح تصور "جديد" اعتبر، في إطاره، "الزاوية" أداة تنظيمية أفرزتها "القبيلة" لحماية كيانها في مواجهة محاولات احتكار"السلطة" من طرف السلطان "الشرفاوي".[67] كما لاحظ أن الزوايا تنشط في حالتين: حالة الإحساس بغياب السلطة المركزية، ثم حالة الإحساس بضعف السلطة المركزية.

لكن يبدو لنا أن هذا الطرح بدوره سقط في بعض المطبات، فوجب إبداء بعض الملاحظات بخصوصه أهمها :

- إن اعتبار مؤسسة "الزوايا" رد فعل على مؤسسة السلطان **"الشرفاوي"** لا يستقيم تاريخيا، ذلك أن **"الحكم الشرفاوي"** هو وليد القرن (10 هـ/16م)، وقد تجسد أساسا من خلال تجربة الدولة السعدية، ومن بعدها دولة الشرفاء العلويين، بينما يعود ظهور الزوايا بالمغرب إلى ما قبل هذا التاريخ بكثير: على الأقل إلى القرن(7 هـ/13م)[68].
- إن اعتبار الزاوية أداة تنظيمية تفرزها القبيلة (العرف) في مواجهة طموحات المخزن (الشرع) لاحتكار السلطة، سيسقطنا في نفس الثنائية التي ما فتئت تنتجها الدراسات الكولونيالية: أي جدلية "العرف" في مواجهة "الشرع". كما أن هذا الطرح لن يبعدنا كثيرا عن "أطروحة التمايز"، التي سبق لنفس الباحث أن انتقدها، والتي تجعل نشأة الزوايا تنطلق من التناقض الحاصل بين "المجتمع" (القبيلة) و"السلطة" (المخزن)[69].
- إن ربط نشاط الزوايا بلحظات ضعف/غياب السلطة المركزية، وهي حالة القرنين (9 هـ/15م)، فترة انتشار الزوايا، و(11هـ/17م)، فترة تزايد دور الزوايا في تاريخ المغرب؛ طرحٌ يغيب عنصرا أساسيا ميز هاتين الفترتين اللتين أعقبتا انهيار السلطة المرينية (ق:15م) ثم السلطة السعدية (ق:17م)، ويتمثل هذا العنصر في الغزو المسيحي لسواحل البلاد، وما أثاره من حمية دينية/وطنية في نفوس المغاربة. حيث كانت هذه الحمية وراء تصاعد دور بعض الشخصيات الدينية

(67) م.ن، ص. 50.

(68) يذكر د. محمد حجي أن أقدم الزوايا التي حملت هذا الإسم زوايا الشيخ أبي محمد صالح الماجري (631 هـ/1233م). أنظر: حجي محمد، م.س، ص. 25.

(69) راجع نقد ظريف محمد لأطروحة P.Odınot: ظريف محمد، م.س، ص. 17.

(الصلحاء/شيوخ الزوايا) وإعطائها مكانة متميزة داخل المجتمع المغربي. حيث يعزى نجاح هذه الشخصيات والتفاف المغاربة حولها إلى أحد الأدوار الأساسية التي قامت بها والمتمثل في الدعوة إلى الجهاد، وتوحيد جهود القبائل المغربية لمواجهة (الأجنبي/المسيحي) الذي استولى على ثغور البلاد[70].

إن الربط العضوي بين نشأة الزوايا ودورها السياسي أمر غير ثابت تاريخيا، ذلك أن أقدم الزوايا في المغرب اشتهرت أساسا بعملها على نشر الطرق الصوفية، وتدريس العلوم الدينية. حيث سرعان ما نمت حول هذه الزوايا مدارس استقر فيها طلبة العلم[71]. وقد ظلت الزوايا محافظة على دورها هذا إلى جانب عملها على إيواء المسافرين والحجاج والفقراء وطلبة العلم وإطعامهم. لكن ظروف القرن (9 هـ/15 م) ستضطرها إلى التكيف مع واقع جديد تميز، كما أسلفنا، بضعف/انهيار السلطة المركزية، وشروع الإيبيريين في احتلال الثغور المغربية. ومن تم أصبح على شيوخ الزوايا أن يتحملوا مهاما جديدة، تمثلت في التوسط بين القبائل المتصارعة والتحكيم في النزاعات الطارئة بين فروعها، ثم العمل على توحيد جهودها ضد الأجانب المحتلين، وإذكاء روح الجهاد فيها[72].

لقد استتبعت هذه الأدوار الجديدة للصلحاء /شيوخ الزوايا، نشوء علاقات من نوع جديد بينهم وبين القبائل المغربية. خاصة وأن هؤلاء الصلحاء نجحوا في ضمان السلم في أوساطها، ومنحوا حمايتهم للأسواق والمواسم[73]، كما قادوا المغاربة في معارك ظافرة انتهت بطرد البرتغال من الثغور التي كان يحتلها في الجنوب، ففوضت لهم القبائل أمر اختيار سلطة جديدة تعوض السلطة المرينية/الوطاسية المنهارة، لينصب رجال الزوايا الشريف أبا عبد الله محمد القائم (915-923 هـ/1510-1517م)ملكا على المغرب[74].

لقد نتج تفويض القبائل هذا عن ثقتها في الصلحاء، ويرجع مصدر هذه الثقة إلى مختلف الأدوار التي لعبوها في أوساط المجتمع المغربي، وكذا إلى اشتهارهم بالعلم والصلاح، والورع والزهد في الدنيا ومتاعها. فالشيوخ، مؤسسو الزوايا، لم يكونوا

(70) Montagne (R.), les berbères ... op.cit, p 102-103-106-114

(71) حجي محمد، م.س، ص.25.

(72) Montagne (R.), op.cit, p. 103

(73) يذكر ابن عسكر أن سيدي محمد بن مبارك الدرعي: "كان إذا هاجت فتن القبائل يبعث لهم بالكف عن القتال... ثم أنه وضع أياما معلومة في كل شهر... لا يحمل فيها أحد سلاحا ولا يقدر أحد على المشاجرة فيها، ويجتمع الرجل مع قاتل أبيه وولده وما يقدر أن يكلمه".: ابن عسكر محمد، دوحة الناشر، ص، 114، تحقيق محمد حجي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط. 1976.

(74) حجي محمد، م-س، ص. 26.

يحتفظون بشيء مما كان يتدفق على زواياهم من هبات وهدايا وزيارات وأعشار... حيث كانت مهام الإيواء والإطعام، والصدقة... التي يضطلعون بها تعيد كل ما تجمع إلى مستحقيه من الطلبة والفقراء، والغرباء والمسافرين... ومن تم كان هؤلاء الصلحاء يشرفون بشكل من الأشكال، على إعادة التوزيع العادل للثروة داخل المجتمع، ويخففون من حدة الفوارق الاجتماعية [75]. وكان دور الإطعام هذا من بين العوامل التي رسخت الاعتقاد في بركتهم وكراماتهم[76].

كانت المكانة التي حضي بها الصلحاء إذن نتيجة للأدوار التي قاموا بها، كما كانت سببا في تنامي نفوذهم الكاريزمي في أوساط القبائل.كما شكلت تلك الهبات والزيارات والأعشار التي تلقتها زواياهم، تكريسا فعليا لتبعية هذه القبائل، وقاعدة مادية - بالنسبة لورثتهم على الخصوص - تدعم النفوذ السياسي للزوايا الذي بدأ يتنامى منذ هذا التاريخ (ق 15 ومطلع 16م).

إن تدخل الزوايا في الشؤون السياسية للبلاد هو إذن وليد ظروف تاريخية محددة تميزت بانهيار السلطة المركزية وتزايد التهديد الخارجي. لكن هذا التدخل لم ينته بانتهاء هذه الظروف، واختيار الزوايا للشرفاء السعديين كحكام جدد. بل إن النفوذ السياسي للزوايا تكرس حتى خلال فترة قوة السعديين.

إن دعم شيوخ الزوايا للسعديين ضد المرينيين أكسبهم نوعا من الاستقلالية في موقفهم السياسي، لكن هذا الدعم سرعان ما تحول إلى مصدر إزعاج للسلطة المطلقة التي حاول السعديون فرضها[77]. ومن تم حاول محمد الشيخ المهدي(951-965 هـ/1544-1557م) تأكيد سلطة المخزن المركزي عليهم، والحد من استقلاليتهم عبر إخضاعهم لأداء الخراج، لكن هذه المحاولات باءت بالفشل[78].

وسرعان ما تأكد دور الزوايا في الحياة السياسية المغربية، حيث أصبح شيوخها يلعبون دور الوساطة بين السلاطين السعديين والقبائل المغربية، وذلك منذ أن رحل السلطان عبد الله الغالب(1557-1574)، عند استهلال حكمه، إلى تازروالت لزيارة الشيخ أحمد بن موسى ليطلب حمايته، حيث أكد له هذا الصالح السلطة على ساكنة

(75) PASCON. PAUL, La Maison d'Ilìgh, p 44, S.M E.R, Rabat 1984.

(76) أنظر ما أورده ابن عسكر في هذا الباب عند ترجمته لكل من الشيخين: عبد الله الكوش المراكشي، ومحمد بن ويسعدن. ابن عسكر، دوحة الناشر، ص 110-113

(77) Cour August, Etablissement.. op.cit, p. 99.

(78) راجع أسباب عدول محمد الشيخ المهدي عن فرض النائبة على أولاد الشيخ خالد بن يحيى المصمودي عند: ابن عسكر، م.س، ص. 116.

الجنوب المغربي سواء منهم العرب أو البربر[79]. وقد اتخذت هذه الوساطة شكلا آخر في الاتجاه المعاكس، حيث كانت زاوية الشيخ سيدي عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم في تافيلالت بإدا وزداغ (الأطلس الكبير) ملجأ لتقديم الشكاوى والتظلمات ضد قواد أحمد المنصور. وكانت مجرد رسائل ابنه أبي زكرياء يحيى الحاحي كافية ليقوم السلطان زيدان بن المنصور بتسريح من شفع له سيدي يحيى مهما كان جرمه[80].

عبر هذه الأدوار إذن تكرس تدخل الزوايا في الشؤون السياسية للبلاد، وازدادت مكانة صلحائها رسوخا ورفعة في قلوب وأعين المغاربة، فلا غرابة إذن أن يهبوا إلى الالتفاف حول هؤلاء الصلحاء بمجرد إحساسهم بضعف أبناء المنصور، واستعار نار التطاحن بينهم، وشيوع فساد أخلاقهم، وتأكد تحالفهم مع العدو المحتل. فالمكانة التي احتلها الصلحاء، والأدوار التي لعبوها منذ القرن 15م وطيلة القرن 16م جعلت المغاربة يرون في بعضهم البديل عن السلطة السعدية المنهارة، والقيادة الكفؤة لإعادة الأمن والاستقرار للبلاد، ومواجهة خطر العدو الخارجي الداهم، وكان من بين هؤلاء: الشيخ أبي زكرياء يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم المناني الحاحي، الذي آلت إليه رئاسة زاوية أهله بتافيلالت في إداوزداغ (الأطلس الكبير) بعد وفاة أبيه أبي محمد عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم سنة (1012هـ/1603م).

(79) Meunié (D.J), le Maroc .. op.cit, p. 547.

(80) أنظر رسالة زيدان إلى يحيى الحاحي: الإفراني، النزهة، ص.219.

الفصل الثاني

زاوية آل سعيد بن عبد المنعم ومكانة الأسرة المنانية الحاحية

1 - التأسيس وبداية الانتقال إلى الدور السياسي:

1-1 أصل الأسرة المنانية الحاحية:

إن أول المعروفين من سلسلة نسب الأسرة المنانية الحاحية هو داود بن خالد، فهو أول من استقر منهم بحاحة، في قبيلة إذا وبوزيا على السفح الشمالي الغربي للأطلس الكبير الغربي[1]. وقد غلّب العلامة المختار السوسي أن هذا الاستقرار يعود إلى نحو القرن (6 هـ/12م)،[2] وهو تغليب مَبْلَغُ مُعتَمَدِه الظّن، نظرا لخلو كتب التراجم من أخبار داود بن خالد، وما جمعه منها السوسي مصدره ما يرويه أفراد الأسرة عن جدهم هذا. لكن تطبيق معيار ابن خلدون (ثلاثة أجيال في القرن) على سلسلة نسب الحاحيين، يدفعنا إلى إعادة النظر في هذا التاريخ، حيث نرجح أن يكون داود بن خالد من أهل القرن (7هـ/13م)، حتى يصبح الفارق الزمني بينه وبين حفيده الخامس سعيد بن عبد المنعم (توفي 953 هـ /1547م)مقبولا منطقيا. وإليه تنسب قرية أيت داود حيث تأسست فيما بعد زاوية الأسرة التي ما تزال عامرة إلى الآن. وقد نسب أهله إلى مستقرهم هذا (حاحة) فعرفوا بالحاحيين. أما لقب المنانيين - بتشديد النون الأولى - فيعود إلى اعتقاد الأسرة أن جدها داود، وفد على حاحة من منى بالحجاز، ومن ثم عرف بلقبه المزدوج (المناني/الحاحي) الذي يحمله عقبه إلى الآن.

تنتسب الأسرة المنانية الحاحية إلى فرع الشرفاء الأدارسة، وتربط نسبها بأحمد بن إدريس (الأصغر) بن إدريس (الأكبر). لكن عمود نسبها يقع فيه خلط واضطراب بمجرد

(1) تقع مواطن قبيلة إذا وبوزيا بين تمنار في الغرب وأركانة في الجنوب الشرقي، على بعد حوالي خمسة وسبعين كيلومترا (75كلم) جنوبي شرقي مدينة الصويرة.

(2) محمد المختار السوسي، المعسول، ج، 19، ص، 72، مطبعة النجاح، البيضاء 1963.

الابتعاد عن جدها داود المذكور، حيث وقفنا على ثلاث شجرات لنسب المنانيين تختلف كل منها عن الأخرى[3]. وقد سبق للمختار السوسي أن لاحظ، بهذا الخصوص، أن القول بورود داود بن خالد من منى: "يعكر عليه نسبه - كما ترى - إلى أحمد بن إدريس". ويبدو أن نسب الأسرة لم يطرح للنقاش إلا مع ركوب الشيخ يحيى - وهو الحفيد السابع لداود بن خالد - أهوال بحر السياسة المتلاطم الأمواج، حيث عمد خصومه السياسيون إلى الطعن في صحة هذا النسب. وعلى الخصوص منهم ابن أبي محلي الذي خاطب الشيخ يحيى في إحدى المراسلات التي دارت بينهما بقوله:

أيحيى الخسيس النذل مالك تدعي
قصورا شعارا للفحول الأوائل
كدعواك في بيت النبوة نسبة
وأنت دنيء من أخس القبائل[4]

... سعيد بن عبد النعيم بن الحسن بن إبراهيم بن عبد الملك بن الحسن بن داود بن خالد بن يحيى بن زكرياء بن منصور بن عبد المولى بن العافية بن محمد بن احمد بن إدريس (الأصغر) بن إدريس (الأكبر) بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (1) .

... سعيد بن عبد النعيم بن الحسن بن إبراهيم بن عبد الملك بن الحسن بن داود بن عيسى بن يعقوب بن موسى بن عبد السلام بن وكاك بن بلال بن يمور بن منزال بن بودلال بن تومارت بن منى بن يرتضى (أبو كثير) بن نصر بن منصور بن يعقوب بن علي بن عبد الرحمن بن حمزة بن نوح بن عبد الله بن أحمد (كثير) بن إدريس بن إدريس بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (2) .

... سعيد بن عبد المنعم بن الحسن بن إبراهيم بن عبد الملك بن الحسن بن داود بن خالد بن زكرياء بن أحمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن الحسن بن منصور بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن أبي العافية بن محمد بن أحمد بن إدريس بن إدريس بن عبد الله (الكامل) بن الحسن (السبط) بن الحسن (المثنى) بن علي بن أبي طالب (3) .

(1) و(2): المختار السوسي، المعسول، ج. 19، ص. 70.
(3) إذ إبراهيم إبراهيم التامري، المتعة والراحة، ج. 1. ص. 105.

ثلاث شجرات لأنساب آل سعيد بن عبد المنعم الحاحي ويبدو عليها الاضطراب انطلاقا من داود الذي يمثل الحلقة السابعة في السلسلة.

(4) الإفراني، نزهة الحادي، ص. 302، تحقيق عبد اللطيف الشادلي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1988.

لا بد أن تستوقفنا هنا بعض الملاحظات بصدد هذا النقد اللاذع الذي وجهه ابن أبي محلي لنسب الأسرة المنانية حتى نبين بعض دوافعه وخلفياته، وأهم هذه الملاحظات:

- كان الشيخ يحيى الحاحي يمثل عقبة كأداء أمام طموح ابن أبي محلي في الاستيلاء على السلطنة، وذلك لأسباب عديدة منها: قوة زاوية زداغة التي يترأسها، والتي جعل من التفاف القبائل السوسية حولها، قوة ضاربة احتمى بها السلطان زيدان بن المنصور نفسه ضد ابن أبي محلي هذا، وكان تمسك يحيى ببيعة زيدان - خلال هذه المرحلة على الأقل -يضعف من حظوظ ابن أبي محلي في إسقاط عرشه.
- لم يكن بإمكان يحيى الحاحي، وهو الفقيه المحدث، والمسند الأثري، والشيخ الصوفي ... أن يسكت على ادعاءات ابن أبي محلي وشطحاته الصوفية: كادعائه المهدوية، وقوله لأصحابه بأنهم أفضل من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم...[5] فكان يحيى يتعرض لجوهر دعاويه هذه ويفندها ويعرض بصاحبها، ومما نظمه في هذا الباب :

إن قيل للناس إن الهرج يوبقكم
قالوا الفقيه فلان قبلنا التزما

لو لم يكن جاز ما أفتى الإمام به
ولا أتاه ألا فابنوا الذي انهدما

ومن يقل قال خير الخلق قيل له
ها صاحب الوقت يكفينا الذي علما

ونحن أفضل من صحب الرسول لنا
أجر يضاعف في أجفارنا نظما

وزخرفوا ترهات القول فانفعلت
لهم نفوس عوام رشدها عدما

(5) م. ن، ص 301.

بين [illegible] الأمير ومن مناقب الشيخ يحيى ومناقب
الإمام الهمام سيدي عبد الله البكري رضي الله عنه سماها
بكتابة التحقيق في أنساب الوثيقة وبعد فهذا
أنساب الولي الشيخ الحاج الذي هو سماه الله
بالعلم النافع والعمل البديع فهو زماننا سيدي يحيى
بن عبد المنعم بن الحسن بن ابراهيم بن عبد المالك بن الحسن
بن داود بن خالد بن يحيى بن زكرياء بن منصور بن عبد المولى
بن العافية بن محمد بن احمد بن ادريس بن مولاي ادريس
المثنى بن الحسن السبط بن علي
بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين
ونفعنا الله ببركاتهم آمين التي شهرت عنهم بالمثل
وهي عين تجري بالماء بين جبل عرفة وبين بيت الله الحرام بمكة
بناها جدهم داود بن خالد المذكور [illegible] ومن شربها

شجرة أنساب الحاحيين، وهي في ملك السيد المناني الحاج حمّاد بتارودانت.

وقال أيضا في مثل ذلك:

ومعلن تبليس وزاعم أنه
ولي، ومعصوم ولا حوب ثالبه

وأنه مهدي الزمان الأخير في
يديه من التسديد ما هو جالبه

*** ***

يزيـدك من تأويلــه وحديثــه
بما هو في الآي الصـريحة كاذبـه
فيتشـح الإفك المـزور باسمــه
فتخلب من كان الغريــر خوالبـه
فأي فؤاد كان يعرف ما الهــدى
ومـا الدين ما تشـريعه ما أساليبه
يرى ذا ولا ينشق من كمد علــى
شـريعة ديـن ضيعتـه أصاحبــه[6]

- حاول ابن أبي محلي أن يدعي لنفسه أصلا شريفا بانتسابه إلى العباسيين، فأورد لأسرته شجرة نسب لاحظ بخصوصها الأستاذ عبد المجيد القدوري عدم انطباق معيار ابن خلدون لتحقيق الأنساب عليها .كما عاد ابن أبي محلي نفسه، لما لم يتمكن من إثباتها، ليعترف باختلاط الأنساب في المغرب قائلا: "فاختلطت الأنساب العجمية بالعربية بالجوار والإصهار... وعند الله ما عند المؤرخين في كثير الأسطار".[7]
- وجد ابن أبي محلي نفسه، إذن، أمام خصم شديد المراس، قوته العسكرية والسياسية ضاربة، وحجته العلمية دامغة، وشهرة أهله بالصلاح مدوية، فلم يجد أمامه إلا أن ينزع عنه ما لم يستطع إثباته لنفسه: النسب الشريف، خاصة وأن لا سبيل إلى إثباته إلا "الشهرة والاستفاضة"[8].

إننا لا نرمي من وراء هذا العرض إلى إثبات أو نفي صحة نسب الأسرة المنانية الحاحية، بقدر ما نسعى إلى تسليط الضوء على مدى الأهمية والحساسية التي كان يثيرها النسب الشريف، خلال هذه المرحلة من تاريخ المغرب، نظرا للمكانة الجديدة التي أصبح يحتلها داخل الحقل السياسي/الديني، والتي سنعود لإثارتها عند الحديث عن المرتكزات المعنوية والمادية لثورة الشيخ يحيى الحاحي. (الفصل الثالث).

(6) وردت العديد من قصائد يحيى الحاحي متفرقة في المصادر، أنظر بعضها مجموعا عند :المختار السوسي، المعسول، ج 19، وكذا إد إبراهيم التامري، المتعة والراحة . ج 1.
(7) ابن أبي محلي، الإصليت، نقلا عن القدوري عبد المجيد، م.س، ص.56.
(8) م.ن، ص.57.

1-2 متى كان تأسيس الزاوية المنانية بحاحة ؟

ترجع السيدة مونيي تأسيس زاوية المنانيين إلى جدهم داود بن خالد الذي أسس مع نهاية القرن(9 هـ/15م) زاويته المتفرعة عن زاوية القطب الصوفي محمد بن سليمان الجزولي (ت: 870 هـ/1465م)[9].

لكن، ورغم المجهود الكبير الذي بذلته، يبدو أن هذه الباحثة وقعت في خلط كبير أثناء ترتيبها للأحداث والشخصيات. ولعل سبب ذلك يعود إلى عدم اطلاعها على عمود نسب المنانيين: فهي تجعل سيدي سعيد بن عبد المنعم حفيدا مباشرا لداود بن خالد،[10] في حين أنه حفيده السادس، مع فارق زمني بين الرجلين يربو على قرنين ونصف. وإذا كانت السيدة مونيي قد لاحظت، كما أسلفنا خلال الفصل السابق، أن أية زاوية لم يرد ذكرها بالمغرب الجنوبي قبل عهد الإمام الجزولي (ق: 9 هـ/15م)؛ فكيف يمكن إذن لداود بن خالد أن يكون مؤسسا لزاوية الأسرة وهو من أهل القرن (7 هـ/13م) ؟ وكيف يمكن لزاويته أن تتفرع عن زاوية الإمام الجزولي التي لم تتأسس إلا بعد قرنين من هذا التاريخ ؟

تطالعنا أخبار أحد أعلام هذه الأسرة: عبد النعيم بن الحسن، ويقال له أيضا عبد المنعم، من أهل القرن (9 هـ/15م)، وهو أب سعيد بن عبد المنعم شيخ الأسرة الذائع الصيت. لكن المصادر تتحدث عنه كعالم جليل يلجأ إليه للتحكيم في القضايا والنزاعات في حاحة، في حين لا تورد أية إشارة عن تصوفه أو ترأسه لزاوية ما[11]. ومن تم نميل إلى دحض كل الآراء التي تقول بتأسيس زاوية المنانيين قبل القرن (10 هـ/16م)، أو تجعل هذا التأسيس على يد فرد آخر من الأسرة غير سعيد بن عبد المنعم.

1-3 سعيد بن عبد المنعم مؤسس زاوية المنانين بحاحة:

يعتبر سعيد بن عبد المنعم أحد أشهر أعلام المغرب في القرن: (10 هـ/16م)، كان عالما جليلا وقطبا صوفيا مشهودا له بالولاية. أجمع كل الذين ترجموا له على تفرده، وعلو مقامه الديني والعلمي والصوفي. وصفه ابن عسكر بـ: **"شيخ السنة ومحيي الديانة"**. ثم أضاف: **"كان من أكابر المشايخ وأشهرهم علما وعملا، وله في المعاملات الشأن الذي لا يدرك...**

---

(9) Meunié (D.J) le Maroc, op.cit, p. 485

(10) Ibid, p 485.

(11) وردت العديد من قصائد يحيى الحاحي متفرقة في المصادر، أنظر بعضها مجموعا عند: المختار السوسي، المعسول، ج. 19، وكذا إد إبراهيم التامري، المتعة والراحة، ج.1.

وكان من شدة الدين وقوة الإرادة بالمقام الذي لا ثاني له"[12]. وقال فيه التمنارتي: **"شيخ السنة وإمام الأمة أبو عثمان سعيد بن عبد المنعم المناني شيخ الحقيقة وإمام الطريقة، أحيا بقطره في عصره من السنة رسوما دارسة، وأظهر منها أعلاما طامسة... وإنتعش به أمر الإسلام وعقائد الإيمان"**[13]. كما نعته الإفراني بـ: **"واحد وقته علما ودينا، وهو الذي أحيى الله به السنة بسوس، وإنتعش به الإسلام فيه"**[14].

شهد لسعيد بن عبد المنعم بهذه المكانة معاصروه من أقطاب العلم والتصوف، كالإمام أبي محمد عبد الله الهبطي[15] الذي نقل عنه تلميذه ابن عسكر قوله: **"ما رأيت فيمن أدركت من المشايخ من كان على الجادة، وجاء بالتربية النبوية على أصلها المعروف من سيرة الرسول، صلى الله عليه وسلم، مع أصحابه إلا رجلين: الشيخ سعيد بن عبد المنعم في حاحة، والشيخ أحمد بن القاضي بجبل زواوة"**.[16] وهي الشهادة التي أكدها القطب أحمد بن موسى السملالي بقوله: **"ما ولدت النساء قبله مثله، ولا تلد النساء بعده مثله، وإني لأتمنى أن أكون بجواره فأخدمه بكل جوارحي، حتى بأجفاني"**[17]. وتكفي مثل هذه الشهادات لتثبت للرجل المكانة اللامعة التي تبوأها بين علماء وصوفية عصره، بل لتثبت له تفرده وعلو شأنه على من عاصره منهم.

تخرج سعيد بن عبد المنعم على يد مشايخ لم نقف على أغلبهم، إلا أن أهم هؤلاء، ومعتمده في طريقته الصوفية هو الشيخ أبو فارس عبد العزيز التباع[18]. ومعلوم أن هذا الأخير أخذ مباشرة عن القطب محمد بن سليمان الجزولي، وهو صاحب الإراثة من بعده. وقد أخذ عن التباع، إلى جانب سعيد بن عبد المنعم، جيل من أشهر أعلام صوفية المغرب آنذاك، كأبي محمد عبد الله الغزواني[19]، وعبد الكريم الفلاح[20] وأحمد بن موسى السملالي وغيرهم كثير.

(12) ابن عسكر، دوحة الناشر، ص. 102.

(13) التمنارتي، الفوائد الجمة، ورقة.37.

(14) الإفراني، نزهة الحادي، ص. 309.

(15) هو أبو محمد عبد الله بن محمد الهبطي أصله من صنهاجة طنجة من قبيلة إيمتنة، عالم كبير وصوفي شهير، أخذ على ثلة من مشايخ العلماء والصوفية كـ :عبد الله القسطلي وأحمد الزقاق، والحاج زروق... كما أخذ عن محمد بن يجبش التازي، ومعتمده في التصوف هو شيخه عبد الله الغزواني. كانت وفاة الهبطي سنة (963 هـ/1556م).

(16) ابن عسكر، م.س، ص.103.

(17) التمنارتي، م.س، ورقة. 38.

(18) سبقت ترجمة عبد العزيز التباع، راجع الهامش (65) من الفصل الأول

(19) هو أبو محمد عبد الله بن عجال الغزواني، من أصل عربي، أخذ بفاس على يد الشيخ أبي الحسن علي صالح الأندلسي، ثم انتقل إلى مراكش فلازم الشيخ التباع، ثم استقر ببلاد الهبط فذاع صيته وشاعت كراماته، فنقله السلطان محمد بن الشيخ المريني إلى فاس خوفا على ملكه، فبنى بها زاوية بداخل باب الفتوح، ثم انتقل إلى مراكش وبها استقر إلى أن توفي (935هـ/1529م)وقبره مزارة مشهورة بحومة القصور.

(20) هو أبو محمد عبد الكريم بن عمر، المعروف بالفلاح، من أهل مراكش، صاحب الشيخ التباع، واعتبر خليفته عند المراكشيين، تواتر الناس عنه كرامات كثيرة خاصة في مجال إطعام الطعام، وكان أبو العباس أحمد الأعرج السعدي وأخوه محمد الشيخ المهدي يأتيان لزيارته بزاويته. توفي سنة (933هـ/1527م).

من خلال هذه التلمذة تتأكد متانة سند سعيد بن عبد المنعم في الطريقة الشاذلية الجزولية، حيث لا يفصله عن محييها ومجددها: الإمام الجزولي، غير شيخه عبد العزيز التباع. وهو ما يجعل منه أحد أقطاب هذه الطريقة خلال القرن(10هـ/16م). ولعل ما ميزه عن بقية الأقطاب في عصر، الذي كان بحق عصر الصوفية الذهبي بالمغرب، تشدده في الإتيان بالمعاملات على وجه السنة. فقد اشتهر أتباعه بأنهم **"لا يرتكبون من المذاهب إلا ما وقع الإجماع على التعبد به، أو الإباحة فيما بسبيله الانتفاع به... وكل ما فيه خلاف لا يسلكون سبيله"**[21]. كما تميز بشدة الشكيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكان تشدده هذا، مدعاة لانتقادات وجهت إليه من بعض فقهاء عصره، وقد علق العلامة المختار السوسي بأن هذه الانتقادات إنما كانت في حواشي أعماله لا في لبها[22].

لم نقف على تاريخ مضبوط لتأسيس زاوية حاحة، لكن يبدو أن هذا التأسيس تم مع مطلع العقد الأول من القرن (9 هـ/16م)، أي قبل بيعة السعديين التي تعود إلى (915 هـ/1509م). حيث كان سعيد بن عبد المنعم خلال هذا التاريخ الأخير قد اشتهر بتزعمه لأعمال الجهاد، وهو أمر لم يتم إلا بعد تأسيس الزاوية والشروع في تربية المريدين. وإذا كان بعض الباحثين يرجعون تاريخ تأسيس هذه الزاوية إلى منتصف القرن 16 م[23] فإن مرد ذلك إلى الخلط بين زاوية المنانيين الأولى بحاحة، والثانية بإدا وزداغ، مع أن الفارق الزمني بين تأسيس الزاويتين يبلغ حوالي نصف قرن كما سنرى.

1-4 بداية الدور السياسي للزاوية.

يؤكد ابن عسكر أن تشدد أصحاب سعيد بن عبد المنعم في معاملاتهم، كان سببا في سوء ظنون الملوك السعديين بهم، وبأولاد الشيخ من بعده، **"خوفا من وثوبهم على الملك"**[24]. "لكن هل يكفي تشبث أتباع الشيخ بالسنة وتشددهم في تطبيقها، ليثير كل رد الفعل العنيف هذا، من سلاطين السعديين، والذي وصل إلى حد **"مجاهرتهم بالقتل والتشديد"**؟[25] وهل في التشبث بالسنة ما يؤكد طموحهم إلى الوثوب على الملك ؟ ثم لماذا يصر ابن عسكر على التأكيد بأنه **"لم يقع في حياة الشيخ شيء من ذلك"**؟

(21) ابن عسكر، م.س، ص.103.
(22) السوسي، المعسول، ج. 19، ص.75.
(23) محمد حنداين، مساهمة في دراسة المجتمع الحضري المغربي، تارودانت ومحيطها التاريخي خلال القرنين 17-18 م، ص. 158، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا، جامعة محمد الخامس، السنة 1992-1993 غير منشور.
(24) ابن عسكر، م.س، ص.103.
(25) م.ن، ص 103.

لاحظ (ديل إيكلمان)، وقبله (ليفي بروفنصال)، أن المصادر الإخبارية التقليدية لا تركز في ترجمتها للصلحاء إلا على جانب تدينهم وورعهم، بينما لا تشير إلا بطرق ملتوية إلى أنشطتهم السياسية والدنيوية. وقد أرجع سبب ذلك إلى ما كان يمثله الصلحاء من تهديد قوي لسلطة ونفوذ المخزن، وكذا إلى ارتباط المؤرخين التقليديين ارتباطا وثيقا بهذا المخزن، خاصة فيما يتعلق بمعاشهم، مما يدفعهم إلى السكوت عن هذا الموضوع[26].

يبدو أن هذا ما حدث بالفعل مع سعيد بن عبد المنعم، حيث أجمع مترجموه على زهده وورعه، في حين سكتوا عن نشاطه الجهادي والسياسي المكثف. هذا النشاط الذي تنحصر معلوماتنا عنه في بعض الإشارات المتناثرة التي تسربت، ربما عن غير قصد، إلى هذه الكتابات مثل ما رأيناه مع ابن عسكر. ولولا وقوف المختار السوسي على رسالة أحمد بن عبد الرحمان التزركيني إلى سعيد بن عبد المنعم وإثباته لها،[27] لظل هذا الجانب من حياة الشيخ مغيبا في مصادرنا رغم أهميته القصوى في فهم التطورات التي عرفتها علاقات زاويته بالمخزن خلال الفترات اللاحقة.

تمتع سعيد بن عبد المنعم بنفوذ روحي كبير في أوساط قبائل حاحة وعبدة، التي التفت حوله ليقود جهادها ضد المسيحيين المحتلين لشواطئ تلك المنطقة،[28] بعدما استفحل أمر هؤلاء، وتحالفوا مع عرب السهول بقيادة **يحيى بن تاعفوفت**، وشنوا غاراتهم على مدن وقرى شمال حاحة حتى خربت الواحدة تلو الأخرى، بل وصلت غاراتهم حتى أبواب مراكش[29]. فأصبح الشيخ سعيد بن عبد المنعم في طليعة المجاهدين الذين يناهضون البرتغاليين وحلفاءهم من البدو على امتداد بلاد حاحة وعبدة، وحينئذ تطلع إلى الرياسة قبل أن يستحكم الأمر للسعديين[30].

بطبيعة الحال لا نجد، في كتب التاريخ، تفصيلا لأحداث هذه المرحلة ولا لنشاط سعيد بن عبد المنعم خلالها. وكل ما تبقى لنا من ملامحها: ما تضمنته رسالة صديقه الشيخ **أحمد بن عبد الرحمان التزركيني**[31] يحذره من مغبة تفريق

(26) إيكلمان (ديل)، الإسلام في المغرب، ج. 1، ص. 47، ترجمة محمد أعفيف، دار توبقال، ط.1، 1989.

(27) توجد الرسالة عند السوسي، المعسول، ج. 13، ص. 272-275، وسنعود لمناقشتها.

(28) حجي محمد، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ج. 2، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة فضالة، 1978.

(29) Montagne (R.), op.cit, p. 108

(30) حجي محمد، الحركة، ج. 1، ص. 221

(31) أحمد بن عبد الرحمن المسكدادي التزركيني عالم مشارك أخذ بفاس عن الإماميين ابن غازي وأحمد الونشريسي، صحب الشيخ أحمد بن موسى فأصبح متصوفا زاهدا. ومن أشهر مشايخه السوسيين: الحسن بن عثمان التملي ويحيى بن مخلوف السوسي. كانت وفاة التزركيني سنة (958 هـ/1551م)

الكلمـــة بعد أن أخذت تلتئـــم حول دولة السعديين الناشئـــة. وممــا ورد في هـــذه الرسالـــة :

"بلغنا عنكم أنكم عازمون على مخالفة الشرع العزيز، وعلى الرمي بأديانكم وأبدانكم وأرواحكم وعقولكم وأولادكم وأموالكم وأحبابكم وأتباعكم وأزواجكم في بحور الهوى والردى، ولا سفينة ! وعلى التورط في مهواة الذنوب تتشبثون فيها بالصغيرة والكبيرة. وذلك طلب الملك والولاية، ومنازعة أرباب الدولة بالقتل والمشاتمة .هاه ! هاه! هاه ! كلا لا ! كلا لا ! كلا لا!

أين عقولكم الراجحة ؟ أين علومكم الراسخة ؟ أين بصائركم الثاقبة ؟ أين عهودكم للسادة السالفة ؟ انتهوا خير لكم ! انتهوا خير لكم ! وإني لكم والله من الناصحين "[32].

لم نقف على تاريخ هذه الرسالة، لكن يبدو من سياقها أنها تعود إلى الفترة الممتدة ما بين مبايعة القبائل السوسية محمد بن عبد الرحمان (القائم بأمر الله (915 هـ/1509م)، وانتقاله للاستقرار بحاحة (922 هـ/1516م). ونرجح كثيرا أن يعود تاريخ كتابتها إلى سنة (921هـ/1515م)لأسباب سنذكرها. والرسالة، كما هو واضح، تتضمن تحذيرا شديد اللهجة إلى سعيد بن عبد المنعم من "طلب الملك والولاية ومنازعة أرباب الدولة". ونحن نستبعد أن يكون الدافع من وراء كتابتها، كما هو شائع، مجرد الصداقة وحميمية العلاقة بين الرجلين، أو حتى مجرد خوف عبد الرحمان التزركيني على دين، وأولاد، وأتباع ... صديقه، كما يصرح بذلك. بل قد يكون التزركيني ناطقا رسميا معبرا عن إجماع شيوخ متصوفة جنوب سوس، الشاذليين الجزوليين، الذين كانوا وراء بيعة القبائل السوسية **لمحمد بن عبد الرحمان** شريف درعة، من أمثال: الشيخ عبد الله بن عمر المضغري،[33] الشيخ بركات بن محمد التدسي،[34] والشيخ محمد بن مبارك الأقاوي[35]. وهم شيوخ كان التزركيني يجلهم، بل إنه عزم على صحبة أولهم: (عبد الله بن عمر

(32) المختار السوسي، المعسول: ج. 13، ص.273.

(33) عبد الله بن عمر المضغري من تافلالت، عالم وصوفي كبير أخذ عن أحمد زروق وعبد العزيز القسنطيني، وكانت للمضغري زاويتان :إحداهما بتافيلالت والثانية بتكمدارت بدرعة، وفيها تربى أحمد الأعرج ومحمد الشيخ ابنا القائم بأمر الله .قام برحلة طويلة إلى سوس ليقنع شيوخه بمبايعة السعديين.كانت وفاته حوالي (928 هـ/1522م).

(34) بركات بن محمد بن أبي بكر التيدسي شيخ صوفي اشتهر بالولاية والصلاح، وكان يشرف على أعمال الجهاد بسواحل سوس، ويتدخل لافتداء الأسرى الذين يسقطون في أيدي البرتغاليين، وقد لعب دورا كبيرا في إقناع قبائل سوس بتنظيم جهادها واتخاذ قيادة سياسية، ورفض عرض الإمارة التي تقدمت به هذه القبائل ووجهها إلى شريف درعة محمد بن عبد الرحمن، كانت وفاته بعد917 هـ/1511م.

(35) محمد بن مبارك الأقاوي من أعلام صوفية عصره، كان يحرض القبائل على الجهاد، وعلى يده تمت مبايعة محمد بن عبد الرحمن القائم بأمر الله، وانقادت له القبائل توفي (924هـ /1518م)راجع بعض المعلومات عنه بالهامش (73) بالفصل الأول من هذا الكتاب.

المضغري) للانتفاع به، لولا أن هذا الأخير لم يأذن له.[36] ولا ينبغي أن نغيب، في هذا الباب، علاقات التزركيني بالسعديين، فنحن نعلم أنه وفد على محمد الشيخ بن القائم بأمر الله أثناء مقامه بسوس، كما كان هذا السلطان يثني في حديثه على التزركيني. ويبدو أن العلاقة توطدت بين الرجلين حتى كان الشيخ يتجرأ على مناقشة ونصح السلطان، وهو ما يفهم من قولته المشهورة: "**سيدي أحمد بن عبد الرحمن يخاف الله ولا يخافنا**"[37]. ويبدو أن لهذه العلاقة صلة بتلمذة التزركيني على يد شيخه الحسن بن عثمان التملي الذي اعتبره المؤرخون موطئ دولة السعديين وأحد أوتادها. وكان محمد الشيخ المهدي نفسه من ضمن من أخذوا عنه[38].

تكمن أهمية رسالة التزركيني في تفردها بإخبارنا عن طموحات سعيد بن عبد المنعم السياسية، وتوقه إلى "**الملك والولاية**"، وكيف لا وقد توفرت فيه مختلف الشروط التي قد تمكنه من ذلك ؟ فهو الصوفي الورع الزاهد الذي شهد له معاصروه بالصلاح، وهو الفقيه العالم بشهادة شيخه عبد العزيز التباع الذي كان يقول لأصحابه "**سعيد فقيهكم**"[39]. وقد رأينا أن كل مترجميه توقفوا عند شدة شكيمته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويزيد تزعمه للجهاد ضد البرتغاليين في تدعيم هذه المكانة، كما يوفر له التفاف قبائل حاحة وعبدة حوله قاعدة بشرية قد تمكنه من خوض التجربة، إن صحت رغبته في هذا الأمر. لكن مع ذلك تظل قراءتنا لهذه الوثيقة نسبية ما دمنا لم نطلع على جواب سعيد بن عبد المنعم على هذه الرسالة، حتى نتمكن من الوقوف على رأيه في الموضوع: أهو طموح فعلي في الملك الذي توفرت فيه مؤهلاته ؟ أم أنه مجرد تخمين من متصوفة سوس، الذين حاولوا تركيز قيادة الجهاد في يد محمد بن عبد الرحمن (القائم بأمر الله)، واستباق للأحداث تحسبا لما قد يقع لو صح هذا التخمين ؟ وهي فرضية قد تصح بدورها إذا اعتبرنا ما أشار إليه التزركيني في نفس الرسالة: "**كنت أخبرتني يا سيدي (سعيد) قبل هذا أنك هممت أن ترمي بنفسك من سطح دارك، حين نسب إليك هذا الأمر، والآن عزمت على ما عزمت عليه**".

ليست المرة الأولى إذن التي يشاع فيها طموح سعيد بن عبد المنعم إلى السلطة، وليس هذا أول حوار بين الرجلين في الموضوع. ورغم توفر عدد من القرائن التي بإمكانها

(36) المختار السوسي، المعسول، ج. 13، ص.267.

(37) الحضيكي، الطبقات، ج.1، ص.13.

(38) المختار السوسي، م.س، ص.269.

(39) الحسن اليوسي، المحاضرات، ص. 77، أعدها للطبع محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1976.

إثبات هذا الطموح، فإن تفاصيل الموضوع تبقى بعيدة المنال أمام صمت المصادر عن عدد من الأحداث والقضايا خلال هذه المرحلة من تاريخ المغرب.

تمثل حركة **السلطان الوطاسي محمد البرتغالي** إلى حاحة، نموذجا بارزا للأحداث المسكوت عنها في مصادر هذه الفترة[40]. فقد انفرد محمد الكراسي في بعض أبيات أرجوزته: **"عروسة المسائل"** بالإشارة إلى قيام هذا السلطان بحركة إلى مراكش وحاحة عام (921هـ/1515م) لتنظيم مقاومة الغزاة البرتغاليين[41]. لكننا لا نعلم شيئا عن تفاصيل هذه الحركة. لكن من غير المنطقي أن يصل السلطان الوطاسي إلى حاحة دون أن يلتقي بشيخها ومجاهدها سعيد بن عبد المنعم. فهل تم اللقاء فعلا بين الرجلين ؟ وعلى ماذا تم الاتفاق بينهما ؟ أسئلة قد لا نستطيع الإجابة عنها الآن، لكن من المرجح أن لهذه الرحلة، ولهذا اللقاء دورا ما في دفع التزركيني إلى مكاتبة سعيد بن عبد المنعم. الشيء الذي سيؤكده بكل وضوح إقدام محمد القائم بأمر الله وابنه أحمد الأعرج على الانتقال إلى حاحة والاستقرار بها خلال السنة الموالية(922هـ/1516م)، وهما لم يفرغا بعد من جهاد البرتغاليين بسواحل سوس الذي بايعتهما قبائله لهذا الغرض ! ينبغي أن نلاحظ كذلك أن استقرار القائم وابنه في حاحة لم يتم في مكان عادي، بل كان بالضبط في أفوغال: مقر زاوية، ومدفن شيخ الطريقة ومجددها، وباعث الهمم للجهاد محمد بن سليمان الجزولي ؟ من الواضح إذن أن هنالك علاقة مؤكدة بين وصول السلطان الوطاسي إلى حاحة، وشيوع أخبار تطلع سعيد بن عبد المنعم إلى الرياسة والملك، وبين هذين الحدثين من جهة، ورسالة التزركيني، ثم انتقال مؤسس دولة السعديين للاستقرار بأفوغال من جهة ثانية.

تعكس رسالة التزركيني، من جهة أخرى، مدى حرص فقهاء وصلحاء سوس على استقرار الأمر في يد محمد بن عبد الرحمن القائم بأمر الله، وهو ما يدفعنا إلى التساؤل عن أسباب هذا الاختيار ؟ حيث علله البعض بما رآه هؤلاء من شجاعة القائم بأمر الله، وكفايته في قيادة المجاهدين[42]. لكن من أين لهم أن يروا ذلك، والقائم عاش مؤذنا بدرعة[43]، بعيدا كل البعد عن السواحل وعن أمور الجهاد ؟ ثم لماذا يتركون من اشتهر

---

(40) لاحظ الدكتور عبد الوهاب بنمنصور سكوت كتب التاريخ المغربي والأجنبي عن حركة محمد البرتغالي إلى حاحة، أنظر: محمد الكراسي، عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الفضائل، ص. 22 تحقيق عبد الوهاب بنمنصور، مطبوعات القصر الملكي، الرباط 1966.

(41) محمد الكراسي، عروسة المسائل، ص.22.

(42) محمد حجي، الحركة الفكرية، ج.1 ص. 42.

(43) الإفراني، النزهة، ص 42.

عندهم فعلا بالعلم والصلاح وقيادة الجهاد في حاحة وعبدة ونعني به سعيد بن عبد المنعـم ؟ ألم يكن للانتماءات القبلية، والصراع القديم بين حلفي قبائل شمال وجنوب سوس دور في ذلك الأمر ؟ قد نعثر على بعض ما يعلل هذا الاختيار عند الإفراني الذي نقل عن شارح زهرة الشماريخ ما نصه: **"وكفى ذلك شهيدا على صحة نسبه الشريف عندهم، وإلا لما خصوه (محمد القائم بأمره الله) بالإمامة العظمى التي لا يمتطي صهوتها إلا شريف النسب قرشي المحتد"**[44]. هل كان النسب الشريف، إذن، وحده الفيصل في هذا الاختيار ؟ مع أن صحة نسب السعديين كانت بدورها موضوع نقاش فيما بعد ! وهل كانت مسألة النسب الشريف للأسرة الحاحية واردة خلال هذه المرحلة ؟ أم أن هذا الاختيار كان من بين الأسباب التي دفعت الحاحيين، بدورهم، إلى وضع شجرات أنساب تربطهم بأحمد بن إدريس ؟ أسئلة كثيرة هي، تبقى مفتوحة أمام البحث التاريخي. لكن الذي يهمنا، في هذا المقام، هو أن نتساءل عن مدى تأثير هذه الأحداث والملابسات في تكوين شخصية حفيد سعيد بن عبد المنعم: الأمير يحيى الحاحي ؟ وما دورها في دفعه نحو إعادة تجربة جده، بشكل أكثر نجاحا تمثل في إعلان الإمارة بل وإقامتها بشكل فعلي ؟

2 - الانتقال إلى إداوزداغ وتأسيس زاوية تافيلالت:

2-1 عبد الله بن سعيد مؤسس زاوية تافيلالت:

أجمع كل الذين ترجموا لعبد الله بن سعيد بن عبد المنعم على سعة علمه، وخشوعه، وورعه، وتقواه، وعلى ملازمته للسنة وانكبابه على العلم والتدريس، وخاصة من لقيه منهم[45]. أورد في حقه ابن عسكر: **"فرأيت عقلا وافرا وعلما بارعا وزهدا بالغا"**[46] كما روى عن شيخهما عبد الله الهبطي قوله: **"ما رأيت قط مثل فهم هذا الرجل وإصابة رأيه في العلم."**[47].

(44) م.ن، ص. 44.

(45) نعلم من الذين ترجموا لعبد الله، بن سعيد عن لقاء ومعرفة مباشرة، ثلاثة وهم ابن عسكر في دوحة الناشر، حيث ذكر أنه التقى به عند الشيخ الهبطي. والشيخ أحمد بن علي صاحب كتاب "بذل المناصحة" وقد استقر بزاوية زداغة وتتلمذ على يد عبد الله بن سعيد، وعنه نقل الإفراني وعيره أخبار هذا الشيخ، ولم يتيسر لنا الاطلاع على كتابه القيم هذا .ثم التمنارتي صاحب" الفوائد الجمة "حيث ذكره على رأس أشياخه في التصوف، ويجدر بالذكر أنه تتلمذ أيضا على ابن يحيى بن عبد الله.

(46) ابن عسكر، م.س، ص.103.

(47) م.ن، ص.104.

طارت شهرة الشيخ عبد الله بن سعيد بالنسك، والنظر الدقيق والاحتياط البالغ في طرق العبادة، "فقصده الواردون من جميع آفاق المغرب، وانتفعوا به في أمر دينهم"،[48] رغم أنه احتجب عن الناس وعاش دهره مستخفيا حتى عمن يقصده للزيارة باعتقاد تام! كما اشتهر أيضا بحرصه الشديد على التعليم، إلى درجة اعتقد معها بعض مترجميه أن بركته ارتبطت بهذا المجال: "ومن عظيم بركته أنه لا يأتيه أحد - وإن ملكت العجمة لسانه، وأخذ الهرم أسنانه - وينقلب عنه إلا وقد حفظ عليه، عقيدة وفرضا وسنة، وإن كان لا يعرف حرفا".[49]

تعليمه ومشايخه: بدأ عبد الله بن سعيد تعليمه في حاحة على يد والده العالم الصوفي سعيد بن عبد المنعم، فكان أول مشايخه في العلم والتصوف، بعد ذلك انتقل إلى بلاد جزولة للأخذ عن الصوفي الشهير أحمد بن موسى السملالي[50] بتازروالت. ويبدو أن هذا الانتقال كان بأمر من والده، فقد اشتهر عن سعيد بن عبد المنعم أنه كان يدل الوافدين عليه على الشيخ أحمد بن موسى. وربما انتقل عبد الله أثناء إقامته ببلاد جزولة إلى تمنارت للأخذ عن شيخها الكبير محمد بن إبراهيم التمنارتي[51] الذي وصف بكونه إمام في الفقه والعربية. وقد ذكر من ضمن مشايخ عبد الله بن سعيد السوسيين أيضا الشيخ الصالح عياد بن عبد الله السوسي[52].

خلال جولته العلمية هذه في جزولة، التقى عبد الله بن سعيد، أثناء مقامه في تازروالت، بالشيخ عبد الله الهبطي حين جمعه به شيخه أحمد بن موسى، فلم يتوان في الانتقال للأخذ عنه بجبال غمارة من بلاد الهبط[53]. وقد تأثر به تأثرا بالغا، واقتبس كثيرا من أخلاقه.

---

(48) التمنارتي، م.س، ص.37.

(49) م.ن، ص 37.

(50) هو أحمد بن موسى بن عيسى الجزولي السملالي، يرفع نسبه إلى آل البيت، صوفي شهير وعالم عابد، ساح سياحة كبرى في المشرق والمغرب لقي فيها عددا من الأولياء وأخذ عنهم، وتخرج على يد عدد كبير من أعلام المغرب في القرن 10 هـ /16م . وقد نقل التمنارتي عن شيخه أبي العباس أحمد بن محمد الدرعي أدفال، وهو تلميذ أحمد بنموسى، أن هذا الشيخ أخذ عما يزيد عن ثلاثمائة شيخ منهم عبد العزيز التباع. كانت وفاة أحمد بن موسى سنة 971 هـ . (وقد روى عبد الله بن سعيد قصة لقائه بشيخه أحمد بنموسى للتمنارتي الدي أتبثها في فوائده).

(51) محمد بن إبراهيم بن عمرو بن طلحة اللكوسي الجزولي، ولد بفم الحصن، ثم جال في بلاد جزولة وأخذ عن جملة من الشيوخ مس صمنهم الشيخ الحسن بن عثمان التملي، كما كانت له رحلته لطلب العلم إلى بلاد درعة، استقر ببلدة تمانارت وأفنى عمرا في التدريس فانتفع به خلق كثير من طلبة العلم، وكان إماما في الفقه والعربية، وقد ذكر صاحب الفوائد الجمة أنه كان يدرس مقامات الحريري وقد بلغ التمانين من عمره .كان من ضمص الذين رافقوا السلطان الغالب في حملته على البريحة سنة 969 هـ، وكاىت وفاته سمة 971 هـ.

(52) عياد بن عبد الله السوسي، من كبار صوفية سوس اشتهر بكرمه، فكان الناس يلجأون إلى زاويته في وقت الحاجة، أخذ عن الشيخ عبد الكريم الفلاح. وكانت وفاته سنة 981 هـ.

(53) ذكر ابن عسكر أنه التقى بعبد الله بن سعيد لما رحل للأخذ عن الشيح عبد الله الهبطي.

بعد ذلك انتهى المطاف بعبد الله بن سعيد إلى فاس، لينهل من ينابيع العلوم الدينية واللغوية على يد كبار أساتذة ذلك العصر، وهناك تتلمذ على أبي عبد الله محمد بن علي الأندلسي الشطيبي، ودرس الفقه على كل من عبد الوهاب الزقاق (ت 96 هـ)، وعبد الواحد الونشريسي(ت 955). ولم يستبعد القادري، أثناء ترجمته لعبد الله بن سعيد، أن يكون قد أخذ كذلك على عبد الرحمن سقين (ت 955 هـ)[54].

رحلة طويلة هي إذن، تلك التي قام بها عبد الله بن سعيد من أجل إتمام تعليمه. فقد انتقل من حاحة إلى جزولة، ومنها إلى جبال غمارة ببلاد الهبط، ثم إلى فاس وأحوازها ليلتقي بمشاهير شيوخ العلم والتصوف في ذلك العصر. وهو ما ضمن له تكوينا متينا وشأنا عاليا بين علماء وصوفية زمانه. فلا عجب إذن أن ينال كل هذه الشهرة، ويحظى بإطراء شيوخه ومترجميه عليه، ولا غرابة في أن تقصده كل تلك الجحافل من طلبة العلم، والتربية الصوفية الصحيحة من كل أطراف المغرب. وقد استمرت رحلته هذه حتى مطلع النصف الثاني من القرن: التاسع الهجري، حيث لم يغادر مدينة فاس إلا سنة (955 هـ/1548م)[55].

2-2 ظروف الانتقال إلى إدا أو زداغ وتأسيس زاوية تافيلالت:

تشير بعض المصادر إلى أن عبد الله بن سعيد جلس مكان والده، بعد وفاته، وجرى على نهجه[56]. وهذا يعني أنه استقر، بعد عودته من رحلة طلب العلم، بحاحة في زاوية أبيه بأيت داود. بينما تربط مصادر أخرى بين عودته من الجولة التي لقي فيها عددا من المشايخ، وبين استقراره بإدا أو زداغ. حيث أورد التمنارتي: "له جولة لقي فيها أعلاما، ثم عاد وسكن جبل درن بموضع منه يقال له تافيلالت بزداغة"[57]. يظهر أن التمنارتي، بالرغم من العلاقة الوطيدة التي ربطته بآل الشيخ عبد الله، لم يكن دقيقا فيما ذهب إليه حين ربط مباشرة بين عودة الشيخ من جولته واستقراره بتافيلالت. وقد يعود ذلك إما لاختزاله أحداثا لم تكن مهمة بالنسبة إليه، أو لنسيان وقائع تبعد زمنيا عن فترة وضع

(54) محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، ص. 96، ج.1: تحقيق : محمد حجي وأحمد التوفيق، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط.1977.

(55) القادري، م.ن، ص.96.

(56) الإفراني، النزهة، ص. 309، وكذا الناصري، الاستقصاء، ج، 6، ص. 35، تحقيق : جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء 1955.

(57) التمنارتي، الفوائد الجمة، ورقة. 36.

مؤلفه "الفوائد الجمة" الذي لم يفرغ منه إلاّ سنة: 1045 هـ. كما قد يندرج هذا الأمر في سياق عزوف المؤرخين والمترجمين عن الإشارة إلى مواقف وأنشطة الصلحاء التي تكتسي طابعا سياسيا، خاصة إذا كانوا يعتقدون فعلا في ولايتهم.

أنهى عبد الله بن سعيد جولته لطلب العلم في فاس، وقد خرج منها سنة 955 هـ، أي بعد وفاة والده بسنتين (953هـ /1546م). وقد أجمع أغلب مترجميه على أن انتقاله إلى إدا أو زداغ كان "بموافقة" السلطان الغالب[58]. وذلك يعني أن هذا الانتقال تم بعد سنة (964 هـ/1557م) وهي السنة التي تولى فيها عبد الله الغالب. ومن تم فإن الفاصل بين خروج عبد الله بن سعيد من فاس واستقراره بإدا أو زداغ يتجاوز عشر سنوات، يظهر أنه قضاها في زاوية أبيه بحاحة.

يبدو أن أغلب مؤرخي هذا العهد أخذوا أخبار الشيخ عبد الله بن سعيد عن التمنارتي، لذلك نراهم يرددون عددا من العبارات والجمل الواردة في "الفوائد الجمة"، كما هو الشأن بالنسبة لانتقال الشيخ عبد الله إلى زداغة. حيث أثبت جلهم أن هذا الانتقال كان "بموافقة" السلطان الغالب ! وكأن الأمر يتعلق بانتقال إرادي من طرف الشيخ، الذي يرغب، ودونما سبب واضح، في ترك منبته وعصبته، وأتباع زاوية أبيه، ليجازف بعزل نفسه في هذه الجبال النائية الوعرة ! كأنه لم يكن ينتظر غير موافقة سلطان وقته ليقدم على هذا الانتقال ؟ إنه أمر جد مستبعد طبعا. والراجح أن وراء خروج الرجل من حاحة أسبابا سياسية، تتعلق بصفة أساسية بالنشاط الجهادي/السياسي لوالده سعيد بن عبد المنعم، وبالشكوك التي حامت حول رغبته في الاستيلاء على الملك، تحركها رغبة في قطع صلة الشيخ بالنفوذ الكبير الذي تمتع به والده في أوساط قبائل حاحة وعبدة"[59]. لذلك رأى عبد الله الغالب أن يخرج عبد الله بن سعيد من بين عصبته الحاحيين إلى جبل ناء يتعذر الوصول إليه"[60]. لا يتعلق الأمر إذن "بموافقة" السلطان، بل "بأمر" السلطان.كما لا يتعلق الأمر "بانتقال" ولكن، باستعارة المصطلح من الحقل السياسي، يتحول الأمر إلى" نفي "متعمد تخوفا من تكرار تجربة سبق أن عانى منها أب السلطان الغالب وجده. وهو أمر تؤكده الإشارة الواردة عند ابن عسكر: "ولم يزل السلطان الغالب ومن بعده يكاتبونه (عبد الله بن سعيد) بالأمان ويستعطفونه وهو لا يلتفت إلى شيء

(58) م.ن، ورقة: 36-37. وكذا: الإفراني، صفوة من انتشر، ورقة: 12، مخطوط بخزانة الإمام علي بتارودانت.

(59) حجي محمد، الحركة الفكرية، ج. 2، ص.560.

(60) م.ن، الصفحة نفسها.

من ذلك"[61]. فلماذا المكاتبة بالأمان إذن إذا لم يكن صدر منه في حق هذا الشيخ ما يخل بهذا الأمان ؟ ولماذا الاستعطاف إذا لم يكن مسبوقا بندم على فعل بدر منه وربما تبين عدم صوابه ؟ ولا ينبغي أن ننسى أن الأمر قد يرتبط ربما بتدخل، لتوضيح حقيقة أمر الشيخ عبد الله بن سعيد، من طرف شيخه أحمد بن موسى السملالي الذي حظي عنده بمكانة عالية، خاصة وقد سبق أن رأينا أن عبد الله الغالب لجأ إلى طلب تدخل الشيخ لتمهيد قبائل سوس وأنه ما فتئ يزوره في زاويته تيمنا وتبركا ؟

3-2 تأسيس زاوية تافيلالت بإدا أو زداغ:

من خلال ما تقدم، يتضح أن تأسيس عبد الله بن سعيد لزاويته الجديدة تم خلال مطلع الثلث الأخير من القرن 10 هـ (النصف الثاني من القرن 16م) أي بُعَيْدَ سنة (964 هـ/1557م)، وذلك بمدشر تافيلالت، في مواطن المجموعة القبلية لإدا أو زداغ، جهة الشمال الشرقي لمدينة تارودانت،[62] (يبعد عنها بحوالي: 60 كلم). تعيش مجموعة إدا أو زداغ على السفح الجنوبي للأطلس الكبير، شمالي تارودانت في منطقة وافرة القبائل، ويتحدد مجالها قبليا بمنتاكة من الغرب، وهوزيوة من الشرق، والمنابهة من الجنوب الشرقي، وأيت إيكاس من الجنوب الغربي. أما من جهة الشمال فتشكل حدود مجال إدا أو زداغ الحد الشمالي لإقليم سوس حيث يلتقي بمواطن قبيلتي كدميوة وسكساوة، وهما من قبائل السفح الشمالي للأطلس الكبير المطل على ناحية مراكش. ويتميز موقع تافيلالت بوعورته، فطريقها كلها منعرجات ومرتفعات. ويمتد بأسفل الزاوية وادي خصيب كثيف الأشجار، يجري في وسطه أسيف نتامنت (وادي العسل)، وكان يسمى من قبل وادي القطران، فغير الشيخ عبد الله بن سعيد هذا الاسم تفاؤلا وتيمنا[63].

كان استقرار عبد الله بن سعيد بتافيلالت مسبوقا بمنامة لشيخ مسن من المنطقة رأى فيها أن عينا تفجرت تحت سدرة- وهي السدرة التي سيستقر عندها عبد الله بن سعيد فيما بعد ويبني زاويته - ثم جرت حتى صبت في الوادي، وأن "جنودا من طيور سود تشرب منها فتصير بيضاء فتطير". وعندما قص رؤياه على الشيخ عبد الله بعد أيام من استقراره هناك، أول له هذه الرؤيا قائلا: "سيرد علينا بهذا البلد من الجهال والعماة ما

(61) ابن عسكر، دوحة الناشر، ص.104.

(62) وقع عدد من الباحثين في أخطاء أثناء تحديدهم لموقع تافيلالت إدا أو زداغ، فمنهم من خلط بينها وبين تافيلالت الواقعة بإدا أو محمود : أنظر: Sadkı Ali, "La montagne marocaine" In HESPERIS-TAMUDA Vol XXVIII, Fasc. · Unique 1990".

(63) المختار السوسي، المعسول، ج. 19، ص. 78، وعنه نقل محمد حجي، الحركة الفكرية، ج.2، ص. 559.

لا يحصى فيتعلمون ما يجب عليهم ويتوبون من معاصيهم فيتبدلون حسنا بعد سوء: قال (الراوي) فلم تمض إلا شهور، فشاع خبره في آفاق المغرب، فأتاه الناس لتعلم دين الله أفواجا، فأمضى الله ما رأيت والحمد لله"[64].

تبدو عناصر الوضع بارزة في هذه الرواية، ويظهر أنها من صنف ما يحكى عن الأولياء لإثبات بعض كراماتهم، لكنها تتضمن مجموعة من العناصر الثابتة تاريخيا، والتي تؤكد أنها وضعت بعد أن ذاع صيت الشيخ عبد الله بن سعيد وشاع أمره. وأهم هذه العناصر: ورود أعداد هائلة من الزوار والمريدين على زاوية تافيلالت واهتمام عبد الله بن سعيد بتعليم الواردين على زاويته أمور دينهم، وسرعة ذيوع صيت الشيخ، وسرعة التفاف القبائل حول زاويته، وهي عناصر تتطابق كل المصادر التي ترجمت لهذا الشيخ الجليل في تأكيدها. وهذا الأمر يدفعنا إلى التساؤل حول أسباب الالتفاف السريع للقبائل حول هذا الرجل الذي ظن السلطان عبد الله الغالب أن نفيه إلى هذه المنطقة الوعرة سيجعله بعيدا عن عصبته، فإذا به في وقت وجيز يكون لزاويته قاعدة بشرية من قبائل المنطقة، ربما كانت أوسع من قاعدة زاوية أهله الأولى بحاحة.

لا شك أن ما اشتهر به عبد الله بن سعيد من سعة علم، ورجاحة عقل، وبالغ زهد، وحسن سيرة كان له الدور الكبير في هذا الأمر. لكننا لا نشك، أيضا، في أن يكون لمكانة أبيه، سعيد بن عبد المنعم، العلمية والصوفية، وانتشار أخبار جهاده ضد البرتغاليين، بصفة خاصة، تأثير واضح في هذه المسألة. ومن ثم يحق لنا أن نتساءل عما إذا لم يكن هذا الالتفاف السريع لقبائل المنطقة حول مؤسس زاوية تافيلالت يشكل اختيارا بديلا قامت به قبائل جبال شمال سوس (الأطلس الكبير الغربي)، في مقابل اختيار قبائل سهل وجنوب سوس الالتفاف حول السعديين؟ سؤال يكتسب وجاهته إذا علمنا أن قبائل هذه الجبال لم تخضع للسعديين، ولم تتأكد طاعتها لهم إلا من خلال الحملة التي قام بها السلطان أحمد المنصور سنة (988 هـ/1580م). وقد أورد بخصوصها مؤرخ هذا السلطان، أبو فارس عبد العزيز الفشتالي: "فجالت العساكر في قطر السوس، وانبسطت في جهاته وأركانه، ومرت في جباله وأوطانه... حتى دوخت القصي، واستنزلت من صياصيه العصي... وأوفد عليه (أحمد المنصور) القائد محمد

(64) التمنارتي، الفوائد، ورقة: 194-195

بن إبراهيم بن بجة وفدا من مشيخة أولئك الأقوام، خاضعين تائبين مستأمنين، وتخللتها الطاعة والعافية قاطبة، ولم تبق بها من الفساد شائبة"[65].

2-4 طريقة الزاوية الحاحية بإدا أو زداغ:

سند عبد الله بن سعيد في الشاذلية:

تعتبر الطريقة الشاذلية، التي تستمد أصولها من مدرسة أبي القاسم الجنيد، أوسع طرق التصوف انتشارا في المغرب. وذلك لالتزامها بالكتاب والسنة، وابتعادها عن غلو تيارات التصوف الفلسفي، واعتنائها أكثر بالجانب التربوي العملي.[66] حتى درج على اعتبارها الطريقة الرسمية بهذه البلاد إلى جانب المذهب المالكي في الفقه، والعقائد الأشعرية في التوحيد[67]. وإلى هذا يشير ابن السكاك بقوله: "**وهي أحمد طرق السالكين رضي الله عنهم، لتأسيسها على أقوى الأركان**"[68]. وكذا عبد الواحد بن عاشر في مقدمة رجزه "المرشد المعين" حيث قال:

في عقد الأشعري وفقه مالك وفي طريقة الجنيد السالك[69].

ومن المعلوم أن الطريقة الشاذلية انتشرت بالمغرب عبر طريقين ينتهيان بالشيخين: محمد بن سليمان الجزولي (ت: 1465/877)، وأحمد زرّوق (ت: 899/1493). وقد كان للأول منهما، على الخصوص، دور كبير في إحياء الطريقة الشاذلية ونشرها بالمغرب على نطاق واسع، مما أدى إلى تكاثر أتباعها.

يرتبط سند عبد الله بن سعيد في الشاذلية بالقطب محمد بن سليمان الجزولي، عبر أربعة طرق تلتقي كلها عند الشيخ عبد العزيز التباع، الذي يعتبر وارث سر الإمام الجزولي. فقد أخذ أولا عن والده سعيد بن عبد المنعم، الذي كان من أشهر الآخذين عن الشيخ التباع.كما أخذ عن أحمد بن موسى السملالي، وهو أيضا ممن تخرجوا على عبد العزيز التباع. وقد أسلفنا أن عبد الله بن سعيد عول في طريق التصوف على الشيخ عبد الله الهبطي، ومعلوم أن الهبطي أخذ عن عبد الله الغزواني عن عبد العزيز التباع. كما

(65) الفشتالي، مناهل الصفا، ص.31-32.

(66) محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، ص. 408، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء 1996.

(67) محمد حجي، الزاوية الدلائية، ص.48.

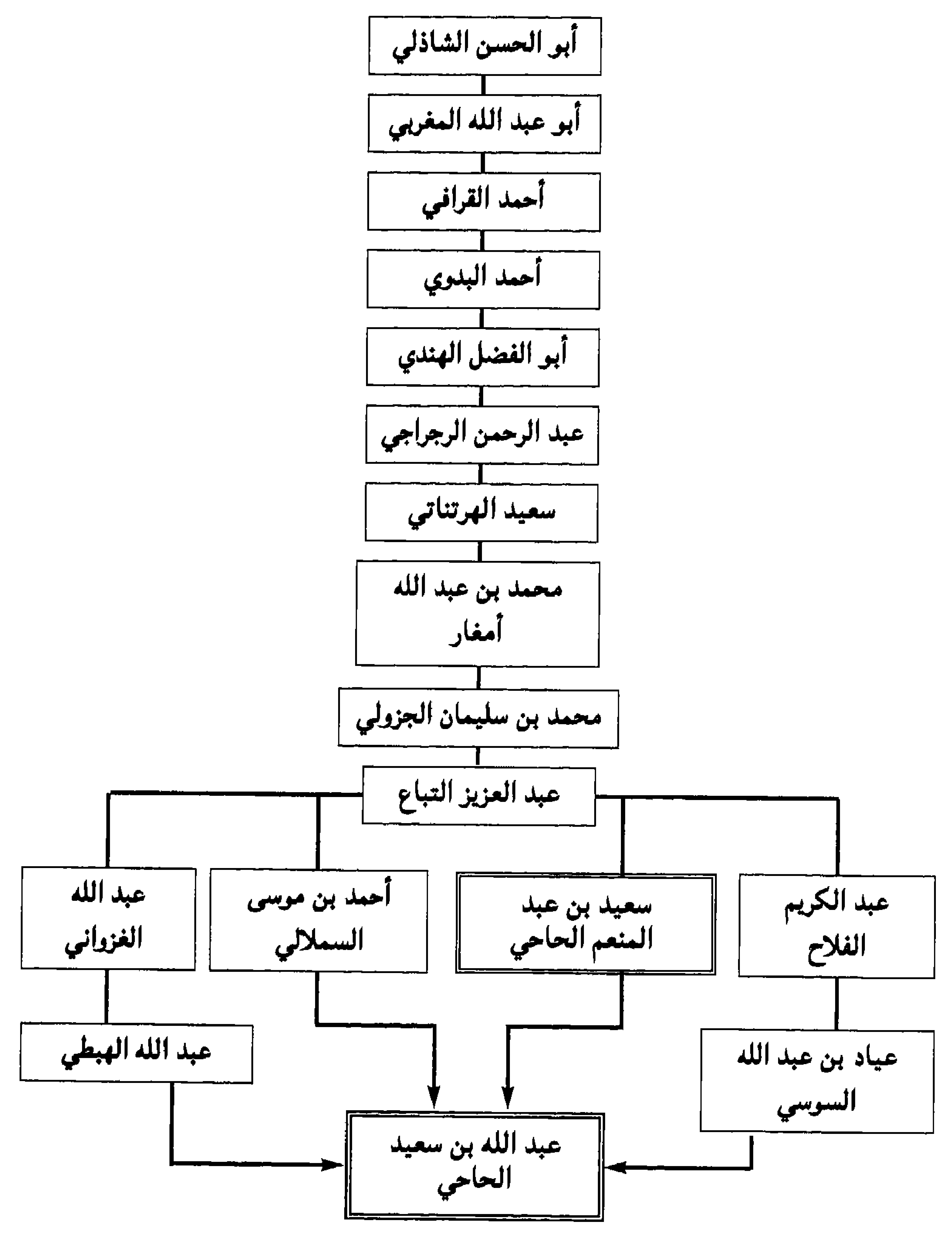
(68) ابن السكاك، استنزال اللطائف الرضوانية بشرح القصيدة المحمدية العرفانية، عن المنوني، ورقات. ص.411.

(69) محمد حجي، الزاوية الدلائية، ص. 48، نقلا عن الدر الثمين في شرح المرشد المعين.

سبق ورأينا من ضمن شيوخ عبد الله بن سعيد الشيخ عياد بن عبد الله السوسي الذي أخذ عن عبد الكريم الفلاح عن الشيخ التباع.

من هنا يتضح أن طريقة الزاوية الحاحية شاذلية جزولية، وأن سندها في هذه الطريقة من أعلى الأسانيد، حيث أن الشيخ عبد الله بن سعيد - وكما أسلفنا- أخذ عن الإمام الجزولي من طريقين بواسطتين فقط، ومن الطريقين الآخرين بثلاث وسائط. فضلا عن أن أباه سعيد بن عبد المنعم أخذ عن الجزولي بواسطة واحدة هي شيخه عبد العزيز التباع. وهو- كما ترى - سند يعلو أسانيد باقي الزوايا المغربية الكبرى المعاصرة لزاوية الحاحيين بإدا أو زداغ، بما فيها الزاوية الدلائية التي اعتبرت من أهم وأكبر زوايا تلك المرحلة[70].

(70) يرتبط أبو بكر بن محمد الدلائي، من أقرب الطرق، بمحمد بن سليمان الجزولي عبر ثلاث وسائط، حيث أخذ عن أبي عمر القسطلي عن عبد الكريم الفلاح عن عبد العزيز التباع عن محمد بن سليمان الجزولي، كما أن أقرب طرق ابنه محمد بن أبي بكر الدلائي إلى الجزولي تمر كذلك عبر ثلاث وسائط، فقد أخذ عن أبي عبيد الشرقي عن أبي القاسم الزعري عن عبد العزير التباع عن الإمام الجزولي.



اتصال الحاحيين بالإمام الشاذلي عن طريق الإمام الجزولي

مميزات طريقته الصوفية :

● محبة الله والرسول: وقفنا من خلال ما تقدم على أن طريقة عبد الله بن سعيد شاذلية جزولية تباعية، وهي تتميز بالحب الشديد في الله، والامتثال المطلق لأوامره والامتناع عن نواهيه. قال الحضيكي يصف الشيخ عبد الله: "وكان رضي الله عنه شديد المحبة في الله، شديد الرجاء، دائم الخشوع"[71]. وقد صح عنه أنه قال : "والله ما عقلت على مخالفة لله تعالى عز وجل ارتكبتها، ولا آذيت حيوانا ولا نملة".[72] كما اشتهر الشيخ عبد الله أيضا بشديد محبته في الرسول وآل البيت، وإكثاره من الصلاة عليهم. "وكان شديد المحبة لآل البيت، وإن كانوا فاسقين، ويتوسل إلى الله بجاههم".[73]

● المجاهدة: تمثل المجاهدة الجانب العملي في الحياة الصوفية، وهي مأخوذة من الجهاد، ومعناها بذل النفس في سبيل الله، ومحاربة أعدائه، وهي تعني عند المتصوفة محاربة النفس، ومخالفتها باعتبارها عدو الإنسان الذي يقوده إلى الهلاك. ومن أهم مظاهرها الخلوة والعزلة، الزهد، الإكثار من العبادة[74]. وهي مظاهر جسدها الشيخ عبد الله بن سعيد في حياته أحسن تجسيد. فقد اعتزل الناس واختلى للعبادة، وكان زاهدا ورعا وبذلك اشتهر في مختلف المصادر التاريخية. قال التمنارتي: "**وكان عارفا بزمانه ...فاعتزل الفضول وتوارى عن العامة ...وله نظر دقيق واحتياط بالغ في طريقي العبادة والعادة، أزهد الناس وأورعهم.**"[75]وأورد ابن عسكر: "**وكان دهره مستخفيا لا يريد شهرة ولا يتعرف إلى أحد**"[76]. وكان يوصي كثيرا في مجالس تذكيره "**بتصفية الباطن، والتبري من الحول والقوة، والتحذير من شوائب الأعمال ورعونات النفس وحب الدنيا**"[77].

● الحرص على تعليم الأتباع أمور العقيدة والعبادة: اعتبر عبد الله بن سعيد أن التربية الصوفية الحَقّة تنطلق أولا من تعلم أمور العقيدة والحرص على ممارسة العبادة. لذا كان له اهتمام بالغ بتعليم أتباع زاويته ما يجب من العقائد، ويتشدد معهم في ممارسة الشعائر وعلى رأسها الصلاة. قال صاحب بذل المناصحة: "**لم أر أحدا من**

(71) محمد بن أحمد الحضيكي، مناقب الحضيكي، ج. 2، ص. 221، المطبعة العربية، الدار البيضاء 1355 هـ. ط.1.

(72) الإفراني، صفوة من انتشر، ص.11.

(73) الإفراني، صفوة من انتشر، ص.11.

(74) أحمد بوكاري، الزاوية الشرقاوية :زاوية أبي الجعد، إشعاعها الديني والعلمي، مطبعة النجاح الجديدة، ط.1، 1985.

(75) التمنارتي، الفوائد الجمة، ورقة: 37.

(76) ابن عسكر، دوحة الناشر، ص. 104.

(77) الحضيكي، المناقب، ج. 2، ص. 219.

المنتسبين ولا سمعت بمن يهتم بدين أصحابه كما يهتم هو بذلك"[78]. ثم روى أن الشيخ عبد الله كان يعترض طوائف المنتسبين إلى الزاوية من بعض القبائل، الذين يتطوعون لخدمة أراضيها خلال مواسم الحرث والحصاد، وكان يقول لهم: **"لا ننتفع بشيء من خدمتكم إلا إن تعلمتم ما فرض الله عليكم وتأخذوا فيه، وتكون نياتكم على الإقامة عليه، وإلاَّ فلا حاجة لنا فيكم ولا في خدمتكم"**[79]. وكان يعين لهؤلاء، عند حلول وقت الصلاة، من يهيئ لهم الماء الساخن للوضوء، ثم يقيمون الصلاة جماعة في محل عملهم. وقد بلغ من حرصه على تعليم الناس أمور دينهم، أنه لم يكن يأذن لمن يرد على زاويته بمغادرتها إلا بعد حفظ ما يلزمه من أمور العقيدة فرضا وسنة. وهو ما كان يضطر بعض الذين يصعب عليهم حفظ ذلك إلى الفرار، لأنهم يعلمون جيدا أن الشيخ لن يأذن لهم بالرحيل. وفي هذا الإطار لم يكن الشيخ يتوانى في الإجابة على الأسئلة الواردة عليه، حيث كان يفتي فيها ولا يأل جهدا في الاجتهاد، مستعرضا قراءاته واجتهادات معاصريه من الفقهاء والقضاة مما يعكس سعة إطلاعه.[79 مكرر]

● أوراد وأذكار الزاوية: سبق أن وقفنا على طريقة زاوية إدا أو زداغ، ورأينا أنها تتميز بحب الرسول الكريم، والإكثار من الصلاة عليه. وقد جرى عرف المنتسبين للطريقة الشاذلية الجزولية على تحديد أوراد يرددونها، تتمحور حول الصلاة على النبي والتضرع إلى الله. ولم نقف على الأوراد التي كانت تتلى بزاوية عبد الله بن سعيد، إلا أننا نعلم أن تلاوتها كانت تتم بعد صلاة المغرب. لكن ما ميز زاوية إدا أو زداغ أن شيخها لم يقتصر على تربية المريدين بتلاوة الأوراد فقط، بل إنه وضع لهم مواعظ وأذكارا قدرها عشرة أحزاب. جمع فيها نقولا من التفسير والأحاديث والأخبار، تبتدئ من نزول الموت بالمحتضر، ثم أهوال القبر، فالبعث والنشر، والحشر، والميزان، والصراط، والجنة والنار. حيث يجمع القيم على الزاوية كل الواردين والزائرين، وبعد الانتهاء من تلاوة الأوراد، يشرع طلبة الزاوية في تلاوة هذه الأحزاب عليهم إلى وقت العشاء، وبعد الصلاة يعودون لإتمام ما تبقى منها حتى إذا ما فرغوا من ذلك حضر الطعام[80].

---

(78) الإفراني، صفوة...، ص. 13، وصاحب "بذل المناصحة" هو الشيخ أحمد بن علي الهشتوكي البوسعيدي، وكان قد لازم الشيخ عبد الله بن سعيد فى زاويته بزداغة إلى أن مات، ثم انتقل إلى فاس وأقام بالمدرسة المصباحية إلى أن توفي (1046هـ/1637م)، له تآليف كثيرة من أشهرها "بذل المناصحة في فعل المصافحة" الذي يعتبر مصدرا مهما لأخبار الشيخ عبد الله بن سعيد، وعنه نقل كثير من المؤرخين كالإفراني، والحضيكي ...

(79) الإفراني، صفوة...، ص. 13، نقلا عن بذل المناصحة.

(79) مكرر: راجع نص أجوبه الشيخ عبد الله على بعض الأسئلة الموجهة إليه في الملحق آخر هذا الكتاب.

(80) م.ن، ص. 13، وقد نقل الإفراني هذا الكلام عن بذل الماصحة.

ولما كانت قبائل سوس التابعة للزاوية متنوعة الأصول، عربية وأمازيغية، فقد دأب الشيخ عبد الله على تخصيص من يوصل هذه الأحزاب للعربي بالعربية، وللأمازيغي بالأمازيغية. ولم يكن يأذن لزائريه بالانصراف إلا بعد حفظها، كما لم يكن يقبل عقد الشياخة لأحد إلا على ذلك[81]. ويظهر أن هذه المواعظ والأذكار كانت مختصرة بشكل يسهل حفظها على عموم الوافدين على الزاوية، أما تربية المريدين من الطلبة المنتسبين، فإن الشيخ عبد الله اختار له كتابا خاصا في مجلد ضخم عنوانه: **"شعب الإيمان"**، وقد ضم الكتاب أربعا وسبعين شعبة، فصلها واحدة فواحدة. وقف العلامة المختار السوسي على هذا الكتاب في مضمون الخزانة الناصرية بسلا وأثبت بصدده : **"ونفسه يدل على أن مؤلفه اغترف من بحر خضم، وتقل فيه النقول....."**[82]

● غسل البلوغ: كان عبد الله بن سعيد، كما أسلفنا، حريصا على تعليم أتباعه، وكل من يرد على زاويته، ما يجب من أمور العقيدة. كما كان يأمر كل من تعلم، وخاصة إذا كان أميا، بالاغتسال وإعادة الصلاة من يوم بلوغه، وكان يسمي هذا الغسل غسل البلوغ. وموجبه قول الشيخ بأن صحة العبادات تتوقف على صحة الاعتقاد. لذا كان يرى هذا الأمر واجبا على الأمي إذا تعلم عقائده، ومستحبا في حق من كان عالما بعقائده مواظبا على عباداته. وقد أثار غسل البلوغ نقاشا كبيرا بين فقهاء سوس حتى ناظروا الشيخ في هذا الأمر إلا أنه أفحمهم فسلموا له بذلك.[83]

منهج الشيخ عبد الله التربوي :

جرت المدرسة الشاذلية الجزولية على تعليم السنة والتزامها، وهو النهج الذي اتبعه الشيخ عبد الله بن سعيد، جريا كذلك على عادة أبيه سعيد بن عبد المنعم في زاويته بحاحة،[84] فكان أول ما ينصح به أتباعه ويعلمهم إياه: إتباع السنة. قال التمنارتي: **"شيخنا المسن أبو محمد عبد الله بن سعيد ...قام هناك يعلم السنة والعقائد، ويرشد**

(81) م.ن، والصفحة نفسها.

(82) المختار السوسي، المعسول، ج.19، ص.79. وقد اعتقد خطأ أن الكتاب من تأليف الشيخ عبد الله بن سعيد، ثم استدرك (ص. 304) ونسب الكتاب إلى صاحبه وهو الشيخ عبد الجليل القصري المتوفي سنة 603 هـ.

(83) الإفراني، صفوة...، ص. 14-15 :

(84) اشتهر سعيد بن عبد المنعم بتشدده الكبير في الإتيان بالسنة النبوية على حالها، وقد أجمع مترجموه على أنه هو الذي أحيا به الله السنة بسوس، وانتعش به أمر الإسلام فيه. وهو وصف اتفق فيه ابن عسكر في دوحة الناشر، والتمنارتي في فوائده، والإفراني في صفوة من انتشر وكذلك في نزهة الحادي، وكل من جاء بعدهم وأحد عنهم من المؤرخين.

الخلق ويحضهم على إقامة السنن والدين". ثم أضاف بعد ذلك: **"حضرت مجلس تذكيره... وأكد على إتباع السنة ولزومها"**[85].

كان الشيخ عبد الله يهتم كثيرا بالمتعلمين، فيراعي مستواهم العقلي والفكري، وقدراتهم اللغوية، فيخصص لكل فئة منهم ما يناسبها. لذا رأينا المواعظ والأذكار تتلى في زاويته باللغتين: العربية والأمازيغية .كما كان يميز بين تعليم الطلبة وتعليم العامة، حيث خصص للعامة كتاب **"المواعظ والأذكار"** وهو مختصر يسهل حفظه، يشتمل على ما هو ضروري للمسلم أن يعلمه من أمور عقيدته. بينما خص الطلبة ببرامج متنوعة شملت عددا من الفروع العلمية كالفقه والحديث والتفسير والتوحيد والتصوف والعربية وهي فنون سبق أن رأينا أن الشيخ نال منها حظا وافرا أثناء جولته لطلب العلم .

وقد عرف عن الشيخ أنه كان يرى أن أنجع تعليم وأيسره هو الذي يتلقاه الإنسان في صغره، لذا كان يفضل تعليم الطلبة على تعليم العامة. ومما روي عنه في هذا الباب قوله: **"رد الطلبة لطريق الاستقامة أيسر، وهو كالبناء على الأساس، وهم أقرب للحق وحفظ الأدب مع الشيخ، والتماس حسن التأويل فيما لا يقف على حقيقته من كلامه**، ثم أنشد:

ما كـان من شيم الأبرار أن يسمـــــوا
بالفسق شيخا على الخيرات قد جبلا

لا، لا، ولكـــن إذا أبصروا خلــــلا
كســـوه من حسن تأويلهم حلـــــلا

بخلاف غيرهم، فإنه يحتاج في استقامته إلى كلفة عظيمة وطول زمان...."[86]

ونظرا لاعتقاده الراسخ بأن التربية الصوفية لا تكتمل إلا بالعلم، بل إنه كان يرى أن الإيمان لا يكتمل إلا بالعلم، كرس الشيخ عبد الله حياته للتدريس بزاويته، ودرّس فنونا مختلفة كما رأينا. وقد نجح في تخريج عدد من الأعلام الذين كان لهم شأن كبير في مجالات العلم والتأليف والقضاء والفتوى ويكفي أن نذكر منهم **محمد بن عبد الواسع الباعقيلي** مؤلف "المناقب"، **وأحمد بن علي البوسعيدي الهشتوكي** مؤلف "بذل المناصحة" وغيره... كما خرّج عبد الله بن سعيد على يده أساتذة أفذاذا تصدوا للتدريس إلى جانبه بزاوية زداغة نذكر منهم على الخصوص ابنيه: **الحسن، ويحيى**. فقد اشتغل

(85) التمنارتي، الفوائد، ص. 37.

(86) التمنارتي، الفوائد...، ورقة: 37.

الحسن بن عبد الله الحاحي بالتدريس والفتوى بإدا أو زداغ، وقد وقف المختار السوسي على مجموعة من فتاويه، أما **يحيى بن عبد الله** فإنه اشتغل بالتدريس كما تولى رئاسة الزاوية بعد أبيه، وامتاز في علوم الفقه والرواية والحديث...، كما برع في الترسل ونظم القوافي. وتكفي هذه الأمثلة دليلا على مدى نجاح الأسلوب التربوي الذي أسسه الشيخ عبد الله بن سعيد ودرجت عليه زاويته من بعده في عهد ولده يحيى.

5-2 علاقة زاوية إدا أو زداغ بالمخزن:

ينطلق تاريخ زاوية إدا أو زداغ من حاحة، أي من الفترة التي كان فيها مؤسس هذه الزاوية، الشيخ عبد الله بن سعيد، يترأس زاوية أبيه بأيت داود. وهي فترة تمتد منذ خروجه من فاس سنة (955 هـ/1548م)إلى ما بعد سنة(964 هـ/1557م) كما أسلفنا. ومن ثم فإن علاقات زاوية زداغة بالمخزن السعدي لم تتمكن من التخلص من تأثيرات طبيعة العلاقات التي كانت تربط هذا المخزن بشخص الشيخ سعيد بن عبد المنعم وزاويته بحاحة.

سبق أن وقفنا على أن علاقات زاوية أيت داود بالمخزن السعدي كانت مطبوعة بنوع من التوتر سببته تخوفات السعديين من النفوذ المتزايد للشيخ سعيد بن عبد المنعم في أوساط قبائل حاحة وعبدة، وما كان شائعا من طموحه إلى الاستيلاء على الملك .كما أن تشدد أتباع الشيخ في معاملاتهم، حسب ما أورده ابن عسكر، أدت إلى سوء ظنون ملوك السعديين بهم، وبأولاد الشيخ، **"حتى جاهروهم بالقتل والتشديد"**،[87] وقد اشتهر الشيخ سعيد كذلك بشدّته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعانى أوائل السعديين الأمرّين من جرّاء ذلك،**"بل كانوا يتجرّعون مرارة الاحتمال لإنكاره عليهم في طريق الظلم والتعدي"**.[88]

رأينا من قبل كيف خيمت ظلال هذا التوتر على علاقات المخزن بزاوية أيت داود حتى وفاة الشيخ سعيد بن عبد المنعم، وكانت وراء "نفي" ابنه عبد الله، أو لنقل اضطراره إلى تنفيذ أوامر السلطان عبد الله الغالب بالانتقال إلى جبال إدا أو زداغ. فكان من الطبيعي أن ترث زاويته الجديدة تبعات زاوية أبيه الأولى. ومن ثم انطبعت علاقاتها بالمخزن السعدي باستمرار ذلك التّوتر، وهو ما تعكسه الإشارة الواردة عند ابن عسكر : "ولم

(87) ابن عسكر، دوحة الناشر، ص.103.
(88) م.ن، والصفحة نفسها.

يزل السلطان الغالب ومن بعده يكاتبونه بالأمان، ويستعطفونه وهو لا يلتفت إلى شيء من ذلك".[89]

لقد أقنعت هذه التجربة الشيخ عبد الله بن سعيد بضرورة الابتعاد عن أي ارتباط مباشر بالسلاطين، أو تدخل في تقلبات الحياة السياسية. فأفرغ قناعته هذه في نوع من الخلوة الصوفية، جعلته يحتجب حتى عن زواره من العامة المعتقدين بصدق في ولايته. وقد تأكد موقفه هذا عندما انقسمت الأسرة السّعدية على نفسها، لما ثار عبد الملك المعتصم وأخوه أحمد المنصور على ابن أخيهما الغالب : محمد المتوكل. حيث التجأ هذا الأخير إلى زاوية ابن ويسعدن[90] بسكتانة، واعصوصبت حوله قبائل الأطلس الكبير بأمر شيخ سكتانة، فاستعرت سفوح الأطلس حروبا طاحنة بين الطرفين، في حين ظل الشيخ عبد الله بن سعيد بعيدا عن التدخل في هذا الصراع رغم قربه الجغرافي منه. وكان بإمكانه - لو انضم بأتباعه إلى ابن ويسعدن -أن يغير مجرى الأحداث[91].

من الواضح إذن أن احتجاب الشيخ عبد الله بن سعيد عن العامة، وابتعاده عن الدخول في علاقات مع المخزن، وإن كان يدخل في باب الخلوة، التي تعتبر مرحلة هامة في التربية الصوفية وجزءا لا يتجزأ من حياة المجاهدة، فإنه في الوقت ذاته يشكل خلاصة تجربة مريرة تمثلت في موقف المخزن السعدي من الشيخ ومن أبيه قبل ذلك. وهي ربما نفس الخلاصة التي دفعت السيدة مونيي إلى التساؤل عما إذا لم يكن موقف الشيخ هذا يشكل إجراء حكيما يجعله في مأمن من محاولات الاغتيال، التي سيسقط ابنه يحيى ضحيتها فيما بعد[92]. وهو احتمال توحي به العبارات التي رددها مترجمو الشيخ عبد الله بن سعيد، نقلا عن التمنارتي الذي أثبت عند ترجمته للشيخ: **"وكان عارفا بزمانه متحفظا من أهله، حسن التدبير، فاعتزل الفضول وتوارى عن العامة، فلا يدخل إليه الزائرون إلا فيما بين السحر وطلوع الفجر، ولا يدخل عليه نهارا إلا من يباشر شؤونه"**[93].

(89) م.ن، ص.104.

(90) تقع زاوية ابن ويسعدن في قبيلة سكتانة شرق مدينة تارودانت على بعد 135 كلم، والشيخ محمد بن ويسعدن، الذي يرفع نسبه إلى عمر بن الخطاب، هو من كبار رجال العلم والتصوف في القرن 10 هـ/16م، أوى إلى زاويته عدد كبير من الطلبة والمساكين والأرامل والأيتام.. وتكفل الشيخ بإطعامهم وكسوتهم.. وقف الشيخ ابن ويسعدن إلى جانب محمد المتوكل ضد عميه عبد الملك وأحمد: ورغم انتصار هذين الأخيرين لم يجرؤ أي منهما على انتهاك حرمة زاوية الشيخ. وكانت وفاته سنة (987 هـ/1579م). وتجد ترجمته عند: ابن عسكر: دوحة الناشر، التمنارتي: الفوائد الجمة، الحضيكي: الطبقات 2، السوسي: المعسول 19 - خلال جزولة 3 - سوس العالمة، حجي: الحركة الفكرية 2.

(91) محمد حجي، الحركة الفكرية، ج. 2، ص.561.

(92) Meunié (D.J), le Maroc Saharien., Op.cit, T : 2, P 486

(93) التمنارتي، الفوائد الجمة، ورقة: 37.

رغم إحجام الشيخ عبد الله عن التدخل في الصراعات السياسية لعصره، فإن المخزن - على ما يبدو - لم يغير موقفه منه ولا من زاويته. حيث ظل هذا الشيخ يشكل مصدر خطورة على السعديين نظرا لتكاثر أتباعه المستمر، والتفاف قبائل الأطلس الكبير وسوس حول زاويته، خاصة وأن هذه القبائل - والجبلية منها على الخصوص - لم يثبت بعد انقيادها لسلطة السعديين رغم طول الأمد[94]. فقد عاد التوتر، من جديد، يخيم على علاقات الزاوية بالمخزن أيام السلطان أحمد المنصور، وهو ما عبر عنه الإفراني بقوله: **"ولما كانت خلافة المنصور، أوغروا عليه صدره، وخوفوه منه لكثرة الزائرين له. فبعث قائده منصور بن عبد الرحمان العلج يتحايل لقبضه."**[95] وقد اضطر الشيخ آنذاك إلى ترك زاويته والصعود للاحتماء بوعورة بعض القمم الجبلية المجاورة، في قرية تعرف ب: (تين تزيمرت) أو (بوشنين) حديثا[95 مكرر].

من الواضح إذن أن حملة المنصور هذه تندرج في إطار موقف المخزن السعدي من زاوية الحاحيين، وهو موقف اتسم بالتشكيك في نوايا الأسرة المنانية الحاحية، والتخوف من طموحاتها، والرهبة من استيلائها على السلطة. لكن الغريب في الأمر أننا لم نقف، من سلوكات الشيخ عبد الله بن سعيد، على ما يبرر هذا الموقف. فقد رأينا أن الشيخ عاش في عزلة وحجاب حتى عن العامة طوال حياته، وأنه لم يتدخل في صراعات الأسرة السعدية، رغم أن الظرف كان مواتيا، لو كان للشيخ أدنى طموح سياسي. لذلك فإننا لا نعلم، لحد الآن، الأسباب الحقيقية لحملة المنصور على زاوية إدا أو زداغ، خاصة وأن المصادر لم تسعفنا في هذا الباب. ويبدو أن آل الشيخ عبد الله أنفسهم لم يكونوا يعلمون سببا مقنعا لذلك الحصار، وهو ما يوحي به سؤال الشيخ يحيى بن عبد الله لأبيه، أثناء هذه المحنة، حيث روى عنه التمنارتي قوله: **"لمّا نزل بقربه قائد المنصور، منصور بن عبد الرحمن يتحيل بقبضه... جئت إليه فقلت: ألا ترى ما نزل بنا من هذه المحالّ بلا ذنب؟ فادع عليها. فقال: نسأل الله السلامة والعافية، فرجعت عنه مهموما"**[96].

(94) لم تنقد هذه القبائل بصفة نهائية للسعديين إلا من خلال حملة المنصور على سوس سنة: (988 هـ/1580م). راجع بهذا الصدد: الفشتالي، مناهل الصفا، ص. 31-32، وكذا إبراهيم بن علي الحساني، ديوان قبائل سوس، ص.14/13.

(95) الإفراني، صفوة...، ص. 12 :

(95) مكرر: استفدنا هذين الاسمين من تصحيحات الأستاذ المؤرخ أحمد بزيد الكنساني.

(96) التمنارتي، الفوائد...، ورقة:37.

ترجع السيدة مونيي أسباب هذا الحصار إلى كون الثائر داود،[97] كان قد التجأ إلى زاوية زداغة[98] أثناء ثورته على عمّه المنصور. وقد أحالت في هذا المجال على نزهة الحادي للإفراني، لكن بعودتنا إلى هذه الإحالة وجدنا الإفراني ينقل أخبار الثائر داود بن عبد المومن عن مناهل الصفا للفشتالي، ولم نقف عند المؤرخين معا على ما يثبت قول السيدة مونيي. فهما يجمعان على أن داود انتقل من جبال سكساوة إلى جبال هوزالة، وصحيح أن مجال قبيلة إدا أو زداغ يقع بين مجالي القبيلتين المذكورتين، وقد يكون داود بن عبد المومن اجتاز في تنقله مجال زداغة، لكن ليس هنالك ما يثبت أنه آوى إلى زاوية عبد الله بن سعيد. ومما يؤكد هذا الطرح أن "ديوان قبائل سوس" لإبراهيم بن علي الحسّاني، والذي وضعه أثناء حملة المنصور على سوس سنة (988 هـ/1580م) لمحاربة ابن أخيه الثائر داود بن عبد المؤمن، يورد اسم مرابطي زاوية تافيلالت إدا أو زداغ ضمن لائحة من حررهم المنصور من وظائف المخزن[99].

مهما يكن من أمر، فالمؤكد أن علاقات زاوية إدا أو زداغ بالمخزن السعدي ظلت يطبعها التوتر والحذر والتحفظ. وكانت طبيعة هذه العلاقات تلقي بظلالها على القبائل التابعة للزاوية. هذه القبائل التي يبدو جليا أنها كانت واعية بطبيعة هذه العلاقة، لذا كانت تلجأ إلى الشيخ عبد الله لتتقدم إليه شكاياتها من إجحاف قواد المنصور. ومن ذلك أنّ أحد أتباع الشيخ بأسفل سوس، أضرَّ به قائد المنصور عبد الرحمان بن المريد الشياظمي، فشكاه إلى الشيخ عبد الله الذي أمر أصحابه الحاضرين، على سبيل التمثيل، أن يذبحوا القائد عبد الرحمان هذا، ويخرجوه للقمر ويشقوا بطنه. فلم يمض إلا وقت يسير حتى هجمت قبائل مسكينة على قصبة القائد المذكور وفعلت به تماما نفس المشهد الذي مثله أصحاب الشيخ[100]. ورغم أن الحكاية تروى في باب إثبات كرامات الشيخ، فإنها تحمل في طيّاتها عددا من العناصر الجديرة بالتأمل. فهل ما فعلته قبائل مسكينة بالقائد عبد الرحمان بن المريد كان من قبيل المصادفة ؟ أم أنها كانت طريقة

---

(97) هو الأمير داود بن عبد المومن بن محمد الشيخ المهدي، توفي أبوه أثناء إقامته مع أخويه عبد الملك وأحمد بتلمسان عندما كانا يتهيآن للثورة على ابن أخيهما محمد المتوكل. وبقي داود في كفالة عمّيه. وبعد أن صار ملك المغرب إلى أحمد المنصور، عقد لابن أخيه هذا على مكناسة، ثم رأى أن يصرفه عنها فصحبه إلى مراكش واستبقاه بها تحت نظره، وعين له من ينوب عنه في ولاية مكناسة. ولما فطن داود إلى مقصد عمه فر إلى جبال سكساوة عام (987 هـ/1579م) فحاول عمه القبض عليه، وكان من أمره ما كان. راجع الفشتالي، مناهل الصفا، ص.23 وما بعدها.

(98) Meunié (D.J), le Maroc. , Op.cit, T2, P 485

(99) إبراهيم بن علي الحساني، ديوان قبائل سوس، ص. 26.

(100) راجع القصة بكاملها عند التمنارتي، الفوائد الجمة، ورقة· 37.

الشيخ في الإيحاء للقبائل بما ينبغي فعله بقواد المخزن وأعوانه؟ بمعنى آخر هل كانت هذه طريقة غير مباشرة في إصدار الأوامر للقبائل بالثورة ؟ إنه احتمال يبقى مطروحا رغم أنه يحتاج إلى مزيد من الإثبات. ثم ألا يمكن اعتبار مجرد الإقدام على التمثيل بذبح أحد قواد المخزن، أمرا ينطوي على موقف معارض لهذا المخزن ؟ أو ليس في طريقة شق البطن ما يوحي على أنها طريقة لعقاب الجشع، الذي قد يكون وراء استيلاء هذا القائد على أكثر مما يجب من جبايات هذه القبائل ؟ ومن تم ألا يمكن اعتبار السياسة الجبائية للمنصور أحد الأسباب الكامنة وراء موقف الزاوية المعارض هذا؟ إنه احتمال أكثر من ممكن، خاصة إذا دققنا فيما ورد في "ديوان قبائل سوس" حيث أضاف الحساني بعد أن أثبت لائحة العائلات المحررة من وظائف المخزن- ومن ضمنها أهل تافيلالت - عبارة: **"وتقضى منهم الجبايات"**[101]. وقد سبق لنا، من خلال الفصل الأول، أن رأينا أن موضوع الجبايات بالضبط سيشكل إحدى نقط الخلاف، فيما بعد، بين الشيخ يحيى بن عبد الله والسلطان زيدان بن أحمد المنصور.

(101) إبراهيم بن علي الحساني، ديوان...، ص.26.

القسم الثاني

مؤهلات ومرتكزات الثورة

الفصل الأول

الشيخ يحيى الحاحي يترأس زاوية إدا أو زداغ

1 - مراحل حياة الشيخ أبي زكرياء يحيى الحاحي:

1-1 مرحلة النشأة بإدا أو زداغ:

تزوج الشيخ عبد الله بن سعيد الحاحي، بعد استقراره بزداغة، من السيدة عائشة بنت إبراهيم الشريفة، وهي من (إدا أو زيمر)، فرزق منها بأبنائه يحيى والحسن وصفية وزينب[1]. من هنا نعلم أن يحيى كان كبير إخوته، وأن ميلاده تم بعد سنة (964 هـ/1557م)[2]. وقد أورد المختار السوسي، أثناء تعليقه على كتاب (روضة التحقيق في ذكر مناقب أبي بكر الصديق)، الذي ورد فيه ذكر يحيى الحاحي في أحداث جرت سنة 971 هـ، ما نصه: "ولا أحسبه (يعني يحيى الحاحي) إلا صغيرا جدا، أو غير مولود سنة 971 هـ "[3]. وانطلاقا من مقارنة هذه التواريخ بباقي مراحل حياة الشيخ يحيى نرجح أن يكون ميلاده فيما بين 965 هـ و970 هـ[4].

نشأ يحيى بزاوية زداغة، التي رأينا أنها كانت مركزا علميا متميزا، فتلقى تعليمه الأول بمدرستها على يد والده عبد الله بن سعيد، ثم شرع في دراسة مبادئ مختلف العلوم التي كانت تدرّس إذ ذاك بهذه المدرسة. فحفظ القرآن، وأخذ مبادئ العربية والفقه والتوحيد، كما تلقى مبادئ التربية الصوفية، فكان أبوه بذلك أول أساتذته. ولا ريب في أن المكانة العلمية الرفيعة التي أدركها يحيى، فيما بعد، كانت أساسا من تأثير هذا الوسط الذي نشأ فيه وتربى. فقد فتح عينيه وسط مدرسة تعج بطلاب العلم، ومجالس القراءة والذكر، وانتصب للتدريس بها شيوخ أجلاء كان لهم ذكر عاطر في أوساط

---

(1) المختار السوسي، المعسول، ج. 19، ص. 78. و(إدوزيمر) تقع بالأطلس الكبير شمال عربي زداغة.

(2) سبق أن رأينا أن استقرار الشيخ عبد الله بن سعيد بزداغة تم بعد هذا التاريخ، راجع الفصل الثاني، ص. 45 من هذا الكتاب.

(3) المختار السوسي، المعسول، ج. 7، ص. 45.

(4) يذكر المؤرخون أن فترة دراسة يحيى الحاحي بفاس تزامنت مع دراسة ابن أبي محلي بها، وهذا يعنى أنهما قرينان. وقد كانت ولادة ابن أبي محلي عام (967 هـ/1560م).

معاصريهم .كما حوت خزانة علمية من أكبر خزانات المغرب في ذلك العصر، جمعت كتب التوحيد والفقه والتصوف...[5]

1-2 الرحلة في طلب العلم :

لم يكن بوسع الشيخ عبد الله بن سعيد، وهو الذي جال وارتحل لأجل طلب العلم واستكمال التكوين، أن يقصر تربية ابنه البكر على ما كان يتلقاه بزاوية زداغة. لذا لم يكد يحيى يجاوز منتصف العقد الثاني من عمره، حتى بعثه والده في رحلة لطلب العلم على يد مشاهير علماء العصر. فقادته هذه الرحلة إلى ثلاث محطات رئيسية هي: فاس، مراكش، ودرعة.

1-2-1 في فـاس :

احتلت مدينة فاس خلال القرن (10هـ/16م) مكانة متميزة في الميدان العلمي بالمغرب، خاصة وأنها استقبلت عناصر ثقافية جديدة من العدوة الأخرى مثلها العلماء الأندلسيون المهاجرون، أو من الحدود الشرقية، خاصة علماء تلمسان. وسرعان ما انصهرت هذه العناصر في بوتقة العلم، وكوّنت حلقة متميزة في السلسلة العلمية التي عرفتها المدينة عبر تاريخها. فاحتفظت فاس بمميزاتها القديمة، المرتكزة على التعمق في دراسة الفقه المالكي والعناية بعلوم القرآن، دون أن تغض الطرف عما حُمل إليها من العلوم الحديثة والعقلية[6].

شكلت مرحلة الدراسة بفاس منعطفا جديدا في حياة يحيى الحاحي، وجعلته ينفتح على آفاق علمية أرحب مما كان متاحا له بزاوية أبيه. فتتلمذ على طبقة من خيرة علماء العصر كالإمام النحوي **أبي العباس أحمد بن قاسم القدومي** (ت: 992 هـ)، وإمام فاس الكبير **أحمد بن علي المنجور المكناسي** (ت: 955 هـ)، والأستاذ الأديب **أبي العباس أحمد بن علي الزموري** (ت :1001 هـ)، وقاضي الجماعة بفاس **عبد الواحد الحميدي** (ت: 1003 هـ)، والفقيه الصالح **الحسن بن عبد الله بن مسعود الدرعي** (ت: 1006 هـ)، ومفتي فاس وخطيبها **أبي زكرياء يحيى السراج** (الأصغر) (ت: 1007 هـ)، وقاضي الجماعة بها **أبي القاسم بن أبي النعيم الغساني** (ت: 1032 هـ).

(5) محمد حجي، الحركة الفكرية، ج. 1، ص.192.

(6) م.ن، ج.2، ص.345.

من ثم تمكن يحيى الحاحي من ضمان تكوين علمي متين ومتنوّع، وانفتح على أصناف من العلوم الدينية واللغوية، والعلوم العقلية، التي كان يدرسها هؤلاء الشيوخ، كعلوم الفقه والحديث والتفسير والقراءات، والعروض والنحو، وعلم الكلام والمنطق... فكان من الطبيعي أن يبلغ يحيى بشفوفه العلمي تلك المكانة الرفيعة التي فاق بها معاصريه، وسرعان ما سنراه يصبح عالما مشاركا، وأديبا بليغا ناظما وناثرا، ومدرّسا شهيرا، ومربيا صوفيا، "توجهت إلى زيارته الهمم، وركبت إليه النجائب[7]".

لا نعلم بالضبط ما هي المدة التي قضاها يحيى في طلب العلم بفاس، وكل ما نعرفه أن إقامته بها طالت سنين عديدة.[8] لكننا مع ذلك نعلم أن يحيى كان يسكن خلال هذه المدة هو وابن أبي محلي بيتا واحد في إحدى المدارس[9]. ونعلم أيضا أن أبن أبي محلي أقام بفاس فيما بين (980-986 هـ/1572-1578م). ومن تم يمكننا حصر تاريخ بداية إقامة يحيى في فاس داخل هذين التاريخين، في حين قد يكون تأخر في الخروج منها عن سنة (986هـ/1578م)، ما دامت إقامته طالت سنين عديدة كما أسفلنا، وما دام خروج ابن أبي محلي في هذا التاريخ كان اضطراريا، ودون أن يتمكن من تحصيل الشيء الكثير من العلم الذي جاء من أجله[10].

2-2-1 في مراكش:

إذا كانت فاس قد استأثرت بمركز الصدارة في الميدان العلمي خلال الدور الأول من حياة الدولة السعدية (915-984 هـ/1509-1576م)، فإن مراكش أدركت أوج عزها العلمي مع بداية عهد السلطان أحمد المنصور (986-1012 هـ/ 1578- 1603م)، فغدت المركز الثقافي الأول في كل الغرب الإسلامي[11]. وتقاطرت عليها أفواج من العلماء من داخل المغرب وخارجه : من سوس وفاس والأندلس والمغرب الأوسط.

(7) العباس بن إبراهيم المراكشي، الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، ج. 10، ص، 222، تحقيق عبد الوهاب بمنصور، المطبعة الملكية، الرباط 1983.

(8) محمد حجي، الزاوية الدلائية، ص.136.

(9) م.ن، والصفحة نفسها .أنظر أيضا : الإفراني، نزهة الحادي، ص.302.

(10) عبد المجيد القدوري، ابن أبي محلي. .، ص. 42-43، يلاحظ الأستاذ القدوري أن ابن أبي محلى لم يستفد كثيرا من الناحية العلمية، ويؤكد على أن خروجه من فاس كانت وراءه عوامل نفسية تتمثل في وفاة أخيه الأكبر، وكذا في "ندمه" الذي قد يعود إلى عدم مساهمته في معركة وادي المخازن.

(11) محمد حجي، الحركة الفكرية، ج 2، ص.378.

لعل هذا التحول كان وراء انتقال يحيى إلى مراكش، بعد أن أرضى نهمه العلمي بما أخذ عن علماء فاس. وربما كان انتقاله إلى مراكش أواخر العقد التاسع من القرن العاشر الهجري. وقد لقي بمراكش عددا من الشيوخ لم تحتفظ لنا المصادر سوى باسم اثنين منهم هما: **أبو عبد الله محمد بن عبد الله الرجراجي** (ت: 1022 هـ) الذي تولى الإفتاء وقضاء الجماعة بمراكش، واشتهر بتضلعه في سائر العلوم الشرعية واللسانية، وانكبّ على التدريس والتأليف، ثم **أحمد بن محمد السالمي** (ت: 1040 هـ) وقد تولى التدريس والإفتاء بمراكش، واشتهر بتمكنه في العلوم النقلية والعقلية، وأفاد معاصريه من الفقهاء والطلبة باجتهاداته ومحاوراته الفقهية.

1-2-3 في درعـــة:

ما إن أنهى يحيى الحاحي رحلته العلمية إلى كل من فاس ومراكش، حتى اتجه إلى درعة ليأخذ على يد شيخها الكبير **أحمد بن محمد أدفال السوساني الدرعـــي** (ت:1023 هـ). وكان هذا الأخير قد انتصب للتدريس بجامع (قصر آدوافال) بلكتاوة على ضفاف نهر درعة، بعد أن جال في المغرب وأخذ عن مشاهير الشيوخ بدرعة وفاس، ولزم الشيخ **أحمد بنموسى السملالي** حتى وفاته سنة 971 هـ. بعد ذلك رحل إلى المشرق رحلتين لقي خلالهما عددا كبيرا من المشايخ بمصر ومكة والمدينة :**كمحمد بن محمد البكري، وبركات بن محمد الحطاب، ونجم الدين الغيطي، والسيد المقدسي**، وغيرهم[12].

عاد أدفال، بعد ذلك، إلى بلده مكتمل العلم والصلاح، وطارت شهرته فقصده الطلبة والعلماء للأخذ عنه. وهذا يحيى بدوره، بعد أن لقي مشاهير شيوخ عصره بفاس ومراكش وأخذ عنهم وأجازوه، ينتقل من جديد إلى درعة قاصدا الشيخ أدفال. وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل عن أسباب هذا الانتقال: ألم توفر فاس ومراكش، وجمهور شيوخهما ليحيى الحاحي كل ما كان يطلبه حتى يضطر للانتقال إلى درعة باحثا عن ضالته؟ وهل كان الشيخ أدفال وحده، يتوفر على ما يشبع به نهم يحيى العلمي، الذي لم يشبعه - على ما يظهر - كل علماء مراكش وفاس؟

من المؤكد أن يحيى الحاحي لم يرحل للأخذ عن الشيخ أحمد أدفال إلا بعد عودته من رحلته العلمية في فاس ومراكش. حيث نعلم أن تلمذته على أدفال كانت بعد عودة

(12) القادري، نشر المثاني، ص.200-201.

هذا الأخير من رحلته الثانية إلى المشرق. ورحلة أدفال الأولى لم تنطلق إلا بعد سنة (971 هـ/1564م)، أي بعد وفاة شيخه أحمد بن موسى السملالي، بينما استمرت إلى ما بعد (974 هـ/1567م)وهي السنة التي أجازه فيها شيخه أبو المكارم محمد بن أبي الحسن البكري الصدّيقي بمصر، قبل أن يتابع رحلته إلى الحجاز.[13] ومن الطبيعي أن تستغرق رحلتا أدفال عددا من السنين، كان يحيى خلالها قد رحل إلى فاس، حيث رأيناه يساكن ابن أبي محلي الذي أقام بها، كما أسلفنا، فيما بين (980 و986 هـ). من ثم يكون يحيى الحاحي قد التحق بفاس في سن مبكر لا يسمح له بأن يكون قد أخذ أولا عن أدفال، خاصة وأن التمنارتي أورد قائمة الكتب التي رواها يحيى عن شيخه بدرعة وقد فاق عددها المائة[14]. و هو عدد هائل يستحيل أن يكون يحيى قد رواه وأجيز فيه ولما يبلغ بعد الخامسة عشرة من عمره.

ذكر الإفراني أن يحيى الحاحي أخذ عن **الشيخ أحمد أدفال** كثيرا من الفنون، وأجازه في علوم الحديث إجازة عامة، وسبق أن وقفنا على حجم لائحة الكتب التي رواها عنه، وقد تنوعت بين الفقه والحديث والتفسير، والنحو والفرائض والحساب... لكن إجازة أدفال ليحيى الحاحي أن يرويها عنه لا يعني أنه أخذ كل هذه الكتب عنه لوحده، ذلك أنها كانت نفس الكتب التي سبق ليحيى أن درسها على شيوخه السابقين بفاس ومراكش.

من تم يترسّخ الاعتقاد بأن الدافع بيحيى للرحيل إلى درعة لم يكن استكمال التكوين العلمي، بقدر ما كان إتمام التربية الصوفية، وتعزيز السند الشاذلي بأخذ الوظيفة الزرّوقية. نعم، إن ليحيى سندا عاليا في الطريقة الشاذلية، التي أخذها عن أبيه عبد الله بن سعيد، وقد أسلفنا أن طريقة هذا الأخير شاذلية جزولية تباعية. لكن يبدو أن يحيى – وربما بإشارة من أبيه –رغب في تمتين هذا السند بأخذ الشاذلية الزرّوقية عن الشيخ أدفال. ومعلوم أن هذا الأخير اعتمد في طريق التصوف أولا على شيخه: **سعيد بن عبد المنعم الحاحي، وأحمد بن موسى السملالي**، ولازم هذا الأخير عددا من السنين[15] . لكنه رحل بعد ذلك إلى المشرق، كما رأينا، وأخذ بمكة ومصر الوظيفة الزرّوقية التي أخذ يرويها بعد عودته إلى المغرب. وكان أخذه بمكة عن الشيخين **بركات الحطّاب ويحيى**

(13) أثبت التمنارتي نص الإجازة بتاريخها: الفوائد الجمة، ورقة: 180 . كما ذكر القادري أن هذه الإجازة تمت خلال رحلة أدفال الأولى إلى المشرق، نشر المثاني، ج. 1، ص 200.

(14) التمنارتي، الفوائد، ورقة: 120-121.

(15) ذكر القادري أن أحمد أدفال مكث فى صحبة الشيخ أحمد بن موسى عشرة أعوام، يزوره كل عام مرة : نشر المثاني، ج.1، ص. 200. بينما يذكر الحضيكي أن أدفال لزم هذا القطب يزوره كل عام نحو عشرين سنة: الطبقات، ج.1، ص. 42.

الحطّاب، عن محمد بن عبد الرحمان الحطّاب، عن الشيخ **أحمد زروّق**. من هنا يمكننا فهم تلك العبارة التي اعتاد أن يوردها بعض المترجمين عند حديثهم عن تلمذة يحيى الحاحي على يد شيخه **أحمد أدفال** حيث يضيفون "**وهو معتمده**".[16]

1-2-4 إجازة أحمد بابا التنبكتي:

يرد اسم العالم السوداني الكبير، **الشيخ أبو العباس أحمد بابا التنبكتي** ضمن قائمة الشيوخ الذين أجازوا يحيى الحاحي. وقد كانت إجازته له في عدد من الكتب والأحاديث الواردة بإجازة الخرقاني. ومعلوم أن أحمد بابا امتحن هو وأهله عندما سيقوا أسرى من تنبكتو إلى مراكش، على يد قائد السلطان المنصور: محمود بن زرقـون سنـة: (1002 هـ). واستمروا في الأسر إلى أن أذن المنصور بإطلاق سراحهم في الحادي والعشرين من رمضان عام: (1004 هـ) وعندها انتصب أحمد بابا للتدريس بجامع الشرفاء بمراكش.

خلال هذه الفترة كان يحيى الحاحي قد أنهى رحلته لطلب العلم وعاد إلى زاوية أبيه بزداغة حيث انتصب للتدريس، وكانت عودته هذه خلال السنوات الأولى من تسعينيات القرن 10 هـ .كما أن إجازة أحمد بابا له أرخت بـ: 13 ذي القعدة عام: (1008 هـ). ومن تم يكون التنبكتي من شيوخ الإجازة بالنسبة ليحيى وليس من شيوخ الدراسة.

1-3 مرحلة الانتصاب للتدريس:

كانت درعة آخر مرحلة في جولة يحيى العلمية، التي أنهاها، كما أسلفنا، مع مطلع تسعينيات القرن 10 هـ. إذ ذاك عاد إلى زاوية أهله في زداغة مكتمل العلم والصّلاح، شيخا من شيوخ العلم والتصوف، أديبا كبيرا متمكنا من ناصية القوافي. فانتصب للتدريس، إلى جانب شيوخ الزاوية، وعلى رأسهم والده عبد الله بن سعيد. وقد استمر يحيى قائما بوظيفة التدريس زهاء ثلاثين سنة مع أبيه، ومن بعده. فطارت شهرته في أنحاء سوس وقصده أعلامها للأخذ عنه. وكانت له مشاركة في عدد من الفنون : كالحديث، والفقه، والنحو، والتصريف، والتصوف...[17] وقد كرّس الشيخ يحيى الحاحي جزءا هاما من حياته لنشر العلم، وهو ينتقل بالسّكنى بين زاويتهم في تافيلالت، وفي(سهب زبوز) بأولاد تايمة، وبين تارودانت[18].

(16) الإفراني، النزهة، ص. 310. وكذا الناصري، الاستقصا، ح. 6، ص. 35.

(17) الإفراني، النزهة، ص. 310.

(18) المختار السوسي، المعسول، ج. 19، ص.84.

2 - رئاسة الشيخ يحيى الحاحي لزاوية تافيلالت إدا أو زداغ:

2-1 ظروف انتقال مشيخة الزاوية ليحيى :

تمثل سنة (1012 هـ/1603م) منعطفا هاما في تاريخ المغرب، وتاريخ زاوية زداغة. ذلك أن الوباء الذي عمّ منذ (1006هـ /1598م) جرف معه عددا كبيرا من الشخصيات اللامعة في البلاد، من علماء، وصلحاء، ورجالات الدولة...، وعلى رأس هذه الشخصيات: السلطان أحمد المنصور الذهبي، والشيخ عبد الله بن سعيد الحاحي مؤسس زاوية تافيلالت إدا أو زداغ .

وإذا كان مُلك المغرب قد تصدع بوفاة هذا السلطان، من جراء تطاحن أبنائه على العرش، فإن رئاسة زاوية زداغة- على العكس من ذلك -آلت إلى الشيخ يحيى الحاحي بشكل طبيعي، ودونما صعوبات تذكر. وذلك لتوافر شروط موضوعية، ومؤهلات ذاتية جعلت يحيى يتسلم مقاليد الأمور بزاوية أبيه دون منافسة. ويمكن إجمال العوامل التي يسرت الأمر ليحيى، في ما يلي :

أ -كونه الابن البكر للشيخ عبد الله بن سعيد.

ب - لم يذكر بالعلم والصلاح، من أبناء عبد الله بن سعيد - بعد يحيى -سوى الحسن بن عبد الله، الذي اشتغل في زاوية أبيه بالتدريس والفتيا، لكنه توفي في نفس السنة (1012هـ/1603م)، بل وقبل أبيه، متأثرا بالطاعون المنتشر آنذاك[19].

ج - متانة التكوين التي جعلت يحيى يفوق بقية أهله علما وأدبا، وصلاحا، بل ويعلو معاصريه من السوسيين كذلك. وإلى هذا يشير المختار السوسي، الذي استهل ترجمة يحيى بقوله : "العلامة الجليل، الرئيس المتبوع، فَرَعَ كل آل سوس في عصره ."[20] وهو نفس المعنى الذي ذهب إليه الحضيكي بقوله : "رئيس النبلاء، عالم العلماء، جهبذة الجهابذة، علم الأعلام، ذو المفاضل والمفاخر المتفق على تقديمه وتفضيله في فنون شتى، فريد عصره علما وزهدا، وورعا، وعملا، وحالا".[21]

(19) م.ن، والصفحة نفسها.
(20) محمد حجي، الحركة الفكرية، ج. 2، ص.526.
(21) الحضيكي، الطبقات، ج.2، ص.352.

2-2 النشاط العلمي والصوفي للزاوية في عهد يحيى:

سار الشيخ يحيى الحاحي، منذ أن ترأس زاوية تافيلالت، على نهج والده، فكرّس حياته للتدريس وتربية المريدين. وسرعان ما طارت شهرته بالعلم والصلاح، فالتفّت حوله قبائل الأطلس الكبير وسوس. وقصده طلاب العلم، والراغبون في التربية الصوفية السليمة، وشدّوا إليه الرحال من السهل والجبل، فتكاثر بذلك أتباعه. وقد لخص الإفراني هذه الوضعية بقوله: "**ولما مات** (يقصد عبد الله بن سعيد) **جلس ولده يحيى موضعه، ونهج سبيله (...) وكانت ليحيى شهرة عظيمة بالصلاح، وأتباع كثيرون كوالده وجده. وتوجهت لزيارته الأمم، وركبت إليها النجائب**".[22]

أ - التّدريس: عمل الشيخ يحيى الحاحي على نقل كل العلوم التي تلقاها أثناء جولته الطويلة، لتلامذته السوسيين، فاشتغل بتدريس الفقه، والحديث، والتفسير، والتوحيد... دون أن يهمل فنون الأدب والعربية: من عروض، ونحو، وتصريف ... وقد أسلفنا أن القاضي **أبا زيد عبد الرحمان التمنارتي**، ذكر أن الشيخ يحيى الحاحي أجاز له أن يروي عنه ما يزيد عن مائة من أمهات كتب العلوم الإسلامية، في فنون مختلفة، وذكر هذه الكتب بعناوينها، وأسماء مؤلفيها، رواها له الحاحي بسند شيخه أحمد أدفال[23]. وكان التمنارتي قد ورد على الشيخ يحيى بزاويته سنة: (1017 هـ/1608م)، وذكر أنه قرأ عليه حصة من **(الجامع الصحيح)**، و(الأربعين) للنّووي، و**(الأربعين الإبريزية)**، التي غالب رواتها من أهل البيت، وكتاب **(معايب النفس وأدويتها)** للشيخ الإمام أبي عبد الرحمان السّلمي. وأجاز له الشيخ يحيى مروياته عن مشايخه بالمشافهة، والكتابة، ثم أنشده:

يا بنـــي، وليس مثلـــي يسهـــو
عـن حـــديث يرويـه مثلك عنـــــه
أنت ضيف الدنيـا فأقـلل عيوبـــا
من قراها؛ وأخش الردى منه لدنه[24].

كان من عادة الشيخ يحيى الحاحي أن يخص شهر رمضان بتدريس صحيح البخاري، وختْمه خلال هذا الشهر المعظم. وقد دأب التمنارتي على المسير إلى شيخه كل سنة في رمضانَ ليأخذه عنه- وقد تلقاه عنه خمس مرات،[25] فيما بين (1017-1022 هـ/1608-1613 م). ويبدو

(22) الإفراني، المصدر السابق، ص. 310-311.
(23) التمنارتي، الفوائد، ورقة :120-122.
(24) م.ن، ورقة: 39.
(25) م.ن، ورقة: 40.

أن الشيخ يحيى توقّف عن التدريس بشكل منتظم منذ هذا التاريخ الأخير لانشغاله بأمور السياسة.

تمكن الشيخ الحاحي، خلال الفترة التي اشتغل فيها بالتدريس، والتي تربو عن ربع قرن، من تكوين جيل من العلماء، جمعوا بين متانة التكوين العلمي، ورفعة المقام الأدبي، ودرجوا مدرج شيخهم في التحكم في ناصية القوافي. فنظموا أشعارا بديعة وقصائد رائقة، وتولوا عددا من المناصب الهامة من القضاء، والفتيا، والكتابة، إما في كنف شيخهم يحيى، يوم أقام إمارته بتارودانت، أو في بلاط السملاليين لمّا تمكنوا من بسط نفوذهم على كل الجنوب المغربي. ونذكر من ضمن الذين تخرجوا على الشيخ يحيى الحاحي :

1- داود بن عبد المنعم الدغوغي (التانوتي): من أهل القرن (11 هـ/17م) وصفه الرسموكي بقوله: "الفقيه، الأديب، العروضي (...) صاحب القصائد البديعة، والمكاتبات الرائقة، والرسائل البليغة، توفي رحمه الله بالطاعون في بلده".[26] وقد ذكره الحضيكي من ضمن تلامذة الشيخ يحيى الحاحي، وأورد في حقه: "كان رضي الله عنه عالما، عاملا، أديبا، عروضيا".[27]

2- محمد بن الحسن بن قاسم اللكوسي (المانوزي): (ت: 1048هـ/1639م)، فقيه عالم، وأديب أريب، من الشعراء المكثرين في الأساليب المختلفة.كما كان من كتّاب الإنشاء المقتدرين، اتخذه الأمير يحيى الحاحي كاتبا خاصّا، وهو الذي حرر له رسالته الشهيرة إلى السلطان زيدان بن المنصور. وبعد وفاة يحيى انتقل محمد بن الحسن اللكوسي إلى إليغ، وعاش في بلاط **أبي حسّون السملالي** حتى مات في التاريخ أعلاه، ودفن بزاوية أحمد بن موسى.[28]

3- أحمد بن الحسن بن عبد الله الحاحي (ت:1052 هـ/1642م)، تخرج على عمّه يحيى، فصار مثله محدثا راوية، وأستاذا شاعرا، **"له نثر بليغ، ونظم مليح"**.[29] كما برع أيضا في النوازل، وبارى فقهاء عصره في الإفتاء. وصفه السوسي بـ:**"الأديب الكبير،**

(26) الرسموكي، الوفيات، ص. 50.

(27) الحضيكي، الطبقات، ج. 1، ص. 216.

(28) من ضمن من ترجموا لمحمد بن الحسن اللكوسي: الرسموكي، الوفيات، ص.43، وكذا محمد بن عبد الله الروداني خلال تعليقه على (إيليغ قديما وحديثا) للعلامة المختار السوسي، ص. 85.

(29) الرسموكي، الوفيات، ص. 33.

والفقيه المفتي."[30] وهو ممن اشتغلوا بالتدريس والإفتاء بزاوية أهله بتافيلالت الزداغية، ومن آثاره: **(شرح قصيدة الهبطي)** و**(تخميس بردة البصيري)**.

4- أبو زيد عبد الرحمان التمنارتي(ت:1060هـ/1650م) علاّمة جليل، فقيه قاضي، وأديب ناظم ناثر. دخل تارودانت لأخذ العلم وهو لا يزال صغيرا عام 991 هـ، فكان أول أخذه عن **أبي عمران موسى بن أحمد التودماوي** أستاذ وخطيب مسجد القصبة. وقد رحل منذ 1017 هـ للأخذ عن الشيخ يحيى الحاحي، ولازمه منذ ذاك يرحل إليه كل سنة في رمضان، إلى أن استقل شيخه هذا بحكم شمال سوس فعينه على قضائه.أصبح التمنارتي قاضي الجماعة بتارودانت، واستمر في هذا المنصب طيلة حياة شيخه يحيى باستثناء سنتين عزل خلالهما لخلاف معه حول أموال الأحباس،[31] ثم أعيد إليه. وبعد وفاة يحيى ظل التمنارتي قاضي تارودانت في عهد خلفه أحمد بن محمد بن عبد الله الحاحي. ثم بعده كذلك في عهد أبي حسون السملالي لما استولى على حكم تارودانت، حتى مات[32] . وإلى جانب القضاء اشتغل التمنارتي كذلك بالفتيا ، وله مراجعات في هذا المجال مع شيخه **عيسى بن عبد الرحمان السكتاني**[33] . بل كانت ترد عليه العديد من الأسئلة من فقهاء مراكش، فيبادرهم بالإجابة عليها[34] .

انتصب التمنارتي للتدريس بالجامع الكبير بتارودانت، فلقن لطلبته علوما متنوعة بسند شيخه يحيى الحاحي، وسلسلة الكتب التي رواها عنه، وقد قال عن نفسه: "**ولمّا منّ الله علي بإقراء التفسير والحديث، والأصلين، وعلم الفقه وغير ذلك...**"[35]

لم تشغل هذه المناصب، على أهميتها ، عبد الرحمان التمنارتي عن التصدي للتأليف، فخلّف لنا من مؤلفاته المعروفة، كتابه الشهير **(الفوائد الجمة بإسناد علوم الأمة)**،

---

(30) المختار السوسي، المعسول، ج: 19، ص. 83.

(31) كان يحيي الحاحي يرغب في استغلال عائدات الأحباس لتجهيز جيشه، لكن التمنارتي عارض هذا العمل وامتنع عن الصرف مما أدى إلى عزله، أنظر: التمنارتي، الفوائد، ورقة: 160-159.

(32) قال الرسموكي أثناء ترتيبه لقضاة تارودانت: "ثم سيدي عبد الرحمان التمارتي فعزل، ثم سيدي بلقاسم بن أحمد الهوزالي ثم عزل، فأعيد التمنارتي حتى مات". الوفيات، ص. 29.

وقد ذكر التمنارتي أن الذي ولي بعده لم يمكث سوى سنتين: "وقَدم طالباً مسرفا فأتلفها وعادت لقلتها في نحو سنتين (...) ثم هرب المسرف الذي قدم عليها". الفوائد، ورقة: 160.

(33) أنظر هذه المراجعات في: أجوبة السكتاني، تحقيق عبد الكبير وبرايم، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في الشريعة، غير منشور. وخاصة الصفحات: 307/309-474-477-506-507...

أما السكتاني فسنقوم بالتعريف به لاحقا، عند الحديث عن خلافه مع الشيخ يحيى الحاحي في نقض بيعة السلطان زيدان.

(34) التمنارتي، الفوائد، ورقة: 192.

(35) م.ن، ورقة: 148.

وديوان شعر عرف بـ: **(ديوان التمنارتي)**، وشرحا على لامية أحمد بن عبد الله الزواوي التي مطلعها :

الحمد لله وهو الواحد الأزلي

سبحانه جلّ عن شبه وعن مثل

وقد ذكر السوسي أن النسخة التي عثر عليها من هذا الشرح تقع في 260 صفحة، في مجلد طويل[36].

من هنا نستخلص مدى نجاعة الأسلوب التربوي، الذي اتبعه الشيخ يحيى الحاحي، والذي مكنّه من تخريج علماء من هذا الحجم، وبهذه الأهمية. كما نستخلص من خلال نشاط هؤلاء، ومشاركاتهم، مدى تنوع البرنامج الدراسي الذي لقنه الشيخ لطلبته، مما جعلهم يجمعون بين العلم والأدب في ذات الوقت.

ب - تربية المريدين: تدفقت على زاوية تافيلالت، في عهد شيخها الجديد يحيى الحاحي - إلى جانب الطلبة - جحافل من المريدين، والمستشفين، والمستجيرين، ومختلف ذوي الحاجات. ولم يقتصر الأمر على السوسيين، بل إن هذه الوفود تدفقت من مختلف أنحاء المغرب. وهو أمر يعكس مدى الشهرة بالصلاح والزهد، والمكانة الصوفية الرفيعة التي احتلها الشيخ يحيى في أعين المغاربة، خلال هذه المرحلة، مما جعلهم يعتقدون في بركته. وقد رأينا من قبل كيف وصفته المصادر بأنه **"كانت له شهرة عظيمة بالصّلاح، وله أتباع كثيرون..."**[37]

لم تسعفنا المصادر في الوقوف على منهج الشيخ يحيى الحاحي في تربية المريدين، ولا في تحديد الأوراد والأذكار التي لقّنها لهم. ويرجع السبب في ذلك، إلى ضياع محتويات خزانة تافيلالت إدا أو زداغ من جراء الصّراعات والحروب التي خاضتها الزاوية، فيما بعد، سواء في مواجهة السلطان زيدان السعدي، أو الأمير أبي الحسن الجزولي، وكذا إلى تراجع النشاط العلمي بالزاوية بعد مقتل الشيخ يحيى، وانحسار نفوذها السياسي. وإذا كان عبد الرحمان التمنارتي، السالف الذكر، من طلبة الشيخ يحيى، وقاضي الجماعة في إمارته بتارودانت، فإنه لم يف أخبار شيخه حقها، ولم يوردها على وجه الدّقة والتفصيل المفروضين في مثله. لكن عذره أنه ألف كتاب

(36) المختار السوسي، خلال جزولة، ج. 2، ص.52.

(37) الإفراني النزهة، ص.311.

(الفوائد الجمة) تحت نفوذ السملاليين، وهو إذ ذاك قاضى أبي حسون السملالي على تارودانت. فكان من الطبيعي أن لا يسهب في سرد نشاط المنافس الأكبر لولي نعمته الجديد. فالتمنارتي لم ينته من وضع **(الفوائد)** إلا سنة (1045هـ/1636م)، في حين كان السملاليون قد سيطروا على تارودانت- كما سنرى - منذ (1039هـ/1630م)أي بعد مقتل يحيى الحاحي بأربع سنوات.

لكننا مع كل ذلك نعلم أن الطريقة الصوفية لزاوية تافيلالت، قد تعززت، في عهد الشيخ يحيى، بإضافة الوظيفة الزرّوقية، التي أخذها عن شيخه أحمد أدفال - كما سبق - ومن ثم نصبح أمام طريقة شاذلية جزولية زرّوقية، تتميز كذلك بحب الله، وحب النبي، والإكثار من الصلاة عليه، والتوسل بجاهه.

اتبع الشيخ يحيى نهج والده في تربية المريدين، بوضع تآليف مخصوصة لهم، تنوعت ما بين المنثور والمنظوم. وقد ضاع أغلبها، ضمن ما ضاع من كتب وأخبار الزاوية. ولم يحتفظ لنا التاريخ إلا بالنزر اليسير منها مثل **(العقيدة)** التي ذكر المختار السوسي أنه وجد شرحا عليها لسيدي يبورك بن عبد الله، وهي في ست صفحات،[38] ومنظومة في **(شُعب الإيمان)**، وأخرى في **(التوّسّل)** وقد وقف عليهما الدكتور محمد حجي.[39]

لعل من بين الأمور التي تؤكد المكانة الصوفية الرفيعة التي حظي بها الشيخ يحيى الحاحي، الاعتقاد في **"بركته"** من طرف معاصريه، ليس من العامة فقط، بل حتى من خاصّة العلماء والفقهاء[40]. فقصدته وفود الزائرين من أرجاء المغرب، إما لأخذ الورد الصوفي، أو للتوسط في قضاء الحاجات، من طلب المطر **(الاستسقاء)**، **والاستشفاء** من الأمراض، وغير ذلك[41]. ولا يزال الناس حتى الآن، يقصدون عين ماء بالقرب من زاويته، يسمونها **(تالعينت)**، يعتقدون أنها تفيد في شفاء الأمراض الجلدية وغيرها[42].

تكفّل الشيخ يحيى بإطعام زوّاره، وكسوتهم، وإجارة من استجار به منهم، على عادة كبار الصوفية. ومن ثم يتضح أن زاوية تافيلالت، في عهده، قامت بكل الأدوار التي

(38) المختار السوسي، م، س، ص.64.

(39) ذكر الدكتور محمد حجي أنه عثر على قصيدة في شعب الإيمان ليحيى الحاحي، ضمن مجموع بخزانة تامكًروت، عدد: 1580، وعلى أخرى، في التوسل، بتامكروت أيضا، عدد: 1824، وكذا في المكتبة العامة بتطوان عدد:826. أنظر : محمد حجي، الحركة الفكرية، ج.2، ص.563.

(40) أنظر رسالة القاضي عيسى السكتاني إلى الشيخ يحيى الحاحي، عند: الإفراني، النزهة، ص.337/328. وكذا المراكشي، الإعلام، ج.10، ص. 244/237.

(41) حول قضاء الحاجات عند الصلحاء، أنظر :اليوسي، المحاضرات، ص.75.

(42) أخبرنا بذلك مقدم زاوية تافيلالت إدا أو زداغ أثناء زيارتنا لها في صيف 1997

اعتادت أن تقوم بها الزوايا الكبرى: من **إيواء**، و**إطعام**، و**إجارة**...إضافة إلى **تعليم** الجهّال، و**هداية** الضّلال... مما أكسبها شهرة واسعة، وضمن التفاف القبائل السوسية، على الخصوص، حولها، ونزول هذه القبائل عند آراء شيخها يحيى الحاحي، وائتمارها بأوامره. فأصبح له بذلك نفوذ روحي كبير في المنطقة، سيستفيد منه خلال المراحل اللاحقة.

وقد لخص لنا الأدوار التي كانت تقوم بها زاوية تافيلالت، ومكانة شيخها، بأسلوب رائق بليغ، القاضي الشهير **عيسى بن عبد الرحمان السكتاني**، في رسالة بعث بها إلى الشيخ يحيى ينهاه عن طلب الملك، لمّا قام هذا الأخير بنقض بيعة السلطان زيدان بن المنصور. وقد جاءت على إثر الخلاف الذي نشأ بين الحاحي والسكتاني بسبب ذلك، حتى اضطر القاضي عيسى السكتاني إلى مغادرة تارودانت. وما أوثقها من شهادة، وفي مثل ذلك الظرف بالذات، حيث قال: "**وهذا الشيخ يحيى وهو الذي يساق إلى نصحه الحديث، كنّا نستسقي به ونستشفي، وكانت تشد إليه الرّحال، ولا يأنف من إتيانه النساء والرجال، قد أتته من أقطار مغربنا الوفود، ودانت له الذئّاب والأسود، وكان يعلّم الجهّال ويهدي الضلال، ويطعم الجائع، ويكسو العريان، ويعين ذا الحاجة ويغيث اللهفان، وهي سبيل يا لها من سبيل، وطريقة ما أحسنها من طريقة(...).**

أيها الشيخ أكرمك الله بتسديده، أو تجد في الوجود ملكا أعظم من ذلك الملك فتطلبه، أو سلطانا يوازيه أو يقاربه فتحاوله؟"[43].

ج – التأليف والنسخ:أعطى الشيخ يحيى الحاحي، عند ترأسه لزاوية تافيلالت دفعة جديدة لنشاطها العلمي والثقافي. ومما يدل على ذلك، تضخّم حجم مكتبتها، عما كانت عليه في عهد أبيه، بما انتسخه أو أهداه إليه العلماء والطلبة المتوافدون عليه من السهل والجبل.[44] يضاف إلى ذلك ما ألّف في هذه الزاوية نفسها، من طرف شيخها أو بعض أساتذتها. لكن كل ذلك كان مصيره الضياع، بحيث لم يبق من هذه المكتبة الضخمة إلا ما ظل متفرقا في المكتبات الخاصة في سوس وخارجه، وهو على ما يبدو غيض من فيض.

أما فيما يخص الشيخ يحيى، فإن ما وصلنا من إنتاجه لا يعدو بعض المؤلفات الصغرى والمقطوعات الشعرية التي على جودتها لا تتناسب مع مقامه العلمي والأدبي.[45] ومن هذه الانتاجات **(العقيدة)** السالفة الذّكر، والتي شرحها يبورك بـــن

(43) يوجد نص الرسالة كاملا عند :الإفراني، النزهة، ص. 377/328، وكذا عباس بن إبراهيم المراكشي، الإعلام، ج. 10، ص.244/237:

(44) محمد حجي، الحركة الفكرية، ج.1، ص.192.

(45) م ن، ج 2، ص.563.

عبـــد اللــه،[46]. و(**أجوبة فقهية**) في مسائل شتى، و(**مؤلف في الجداول**)،[47] إضافة إلى **القصيدتين** المذكورتين سابقا: الأولى في (**شعب الإيمان**)، والثانية في (التوسل)[48]. وقد ذكر الإفراني أن ليحيى أيضا "**قصيدة لامية** في التّهنئة غالبها مُجَنّسَة، وشرحها في كُرّاسة، سمّاها (**الرُّشفة الهَنِيّة من رسالة التهنئة**)، وله **نظـم في الشهداء** على بحـر الرّجـز".[49]

وليحيى أيضا العديد من المراسلات مع معاصريه، وخاصة منهم منافسوه السياسيون، تتضمن قصائد رائقة، وردت متفرقة في كتب التاريخ[50].

ولعل من عرف مقام الشيخ يحيى الحاحي ينتظر أن يقف له على سيل من المؤلفات الضخمة، ودواوين الشعر، لكنها، على عكس المظنون، غير متوفرة حتى الساعة. ويرجع ذلك في نظرنا إلى عاملين أساسيين :

- **أولهما:** ضياع أغلب ما أُلّف في زاوية تافيلالت، أو انْتُسِخ فيها حتى، من جراء التطاحنات السياسية التي كانت الزاوية طرفا فيها. ومن ضمن نماذج هذا الضّياع، تشتُّت مكتبة الزاوية، التي سبق وأن رأينا أنها عرفت تضخما، خاصة في عهد يحيى الحاحي. ومن ذلك أيضا فقدان كتاب (**التجليّ فيما وقع بين سيدي يحيى، وبين أبي محلي**) الذي ذكر الإفراني أن صديقه القاضي أبا زيد السكتاني أخبره بأنه وقف عليه في مجلد كبير، يشتمل على ما وقع بين يحيى وابن أبي محلي من القصائد في غرض الهجاء وغيره[51]. وقد ذكر السوسي أن الكتاب لأحمد بن الحسن بن عبد الله الحاحي - ابن أخي يحيى - وأن الأستاذ الحاج أحمد الجراري وقف عليه عند بعض آل يحيى المتأخرين.[52] وهو كتاب، على ما يظهر، من شأنه أن يفيد إفادة بالغة في أخبار الشيخ

---

(46) هو: يبورك بن عبد الله السملالي فقيه ومدرس، برع في التأليف رغم حداثة سنه، له شرح على عقيدة الشيخ سعيد بن عبد المنعم الحاحي، وآخر على عقيدة حفيده الشيخ يحيى الحاحي. كانت وفاة يبورك بن عبد الله سنة (1058 هـ). ومن ضمن من ترجم له: الرسموكي، الوفيات، ص. 28، والحضيكي، الطبقات، ج. 2، ص.365.

(47) عبد الله بن إبراهيم التاسافتي، رحلة الوافد، تحقيق علي صدقي ازايكو، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1992 أنظر كذلك :المختار السوسي، سوس العالمة، ص.183، مطبعة فضالة 1960.

(48) راجع الهامش رقم (40) من هذا الفصل.

(49) الإفراني، النزهة، ص.311.

(50) أنظر بخصوص مراسلات يحيى، ومقاطع من قصائده: الإفراني، النزهة؛ الناصري، الإستقصاء، ج. 6، السوسي المعسول، ج. 19، وكذا التامري، المتعة والراحة، ج. 1.

(51) الإفراني، النزهة، ص 311.

(52) المختار السوسي، خلال جزولة، ج. 4، ص.11-12.

يحيى الحاحي، وأخبار معاصره ومنافسه ابن أبي محلي، لو تم العثور عليه. وربما يكون البعض مما قد يكون ألّفه الشيخ يحيى ضاع فيما ضاع.

- **أما العامل الثاني** : فيتمثل، في إقلال الشيخ يحيى في مجال التأليف النثري على الخصوص. فقد تعودنا أن نرى أمثاله من العلماء يميلون إلى التأليف، بشكل مكثف، عندما تنضج تجاربهم، وتترسخ علومهم، وهو ما يحدث عادة عندما يتقدم بهم العمر نسبيا. لكن يبدو أن الشيخ يحيى خلال هذه المرحلة من عمره، كان أكثر انشغالا بأمور السياسة، وتدبير شؤون الإمارة التي أقامها انطلاق من تارودانت. وهي انشغالات كفيلة - في اعتقادنا - بأن تَحول بينه وبين عملية التأليف، التي تتطلب تركيزا كبيرا، وتفرغا تاما، وذهنا رائقا.

اعتبرت زاوية تافيلالت الزداغية إحدى المراكز الكبرى لنسخ الكتب في المغرب السعدي، والتي بلغ عددها ثمانية[53]. حيث انكب بها عدد من النسّاخين على انتساخ مختلف الكتب العلمية، برسم خزانة الزاوية، تحت نظر شيخها: عبد الله بن سعيد الحاحي أولا، ثم ابنه أبي زكرياء يحيى الحاحي من بعده.[54]

ومن الكتب التي انتسخت بزاوية تافيلالت، ولا تزال موجودة إلى الآن: السفر الثاني عشر من **(فتح الباري)** لابن حجر العسقلاني، وقد نسخه **أحمد بن علي البوسعيدي الهشتوكي** بتاريخ: السبت 14 ربيع الأول عام 1012 هـ، ويوجد بالمكتبة الملكية تحت رقم: 8221.[55] كما عثر السوسي على مقدمة نسخة أخرى من نفس الكتاب، ولنفس الناسخ، بخزانة **(أدوز)**، أرخت بأواخر جمادى الأولى عام 1014 هـ[56]. ثم كتاب **(الكامل)** للمبرِّد، وهو من نسخ أبي الحسن علي بن الزبير السجلماسي، فرغ من نسخه يوم الاثنين الثاني من ربيع الثاني عام 1023هـ. ويوجد هذا الكتاب بالخزانة العامة بالرباط تحت عدد : ج. 235[57].

أما المشهورون من النساخين الذين استقروا بزاوية تافيلالت أو زداغ، واشتغلوا بها فهم ثلاثة :

(53) محمد المنوني، تاريخ الوراقة المغربية، ص. 96، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، ط.1، 1991.
(54) أحمد بزيد الكنساني، من تاريخ الوراقة والوراقين بمنطقة سوس، ص. 101، مجلة كلية الآداب بالرباط، عدد مزدوج 21-22 (خاص):1998.
(55) محمد المنوني، م .س، ص.97.
(56) المختار السوسي، خلال جزولة، ج. 2، ص. 52.
(57) محمد المنوني، م .س، ص.97.

- إبراهيم بن عبد الله التُّودماوي: (لم نقف على تاريخ وفاته)، ويبدو أن العمر امتد به حتى القرن 11 هـ، حيث عثر المختار السوسي على كتاب نسخه لشيخه عبد الله بن سعيد الحاحي بتاريخ 996 هـ[58].

- أبو الحسن علي بن الزبير السجلماسي (ت: 1035هـ/1626م)، نزل بزاوية زداغة، ولازم شيخها أبا زكرياء يحيى الحاحي، ويبدو أنه ظل ملازما له حتى توفيا في نفس السنة، حيث رأينا أنه هو الذي نسخ له كتاب (الكامل) عام 1023 هـ[59].

- أحمد بن علي بن محمد البوسعيدي الهشتوكي (ت:1046هـ/1636م): وهو العالم الصوفي المشهور، صاحب كتاب **(بذل المناصحة في فعل المصافحة)**، والبوسعيدي هذا ممّن أقاموا بزاوية زداغة خلال عهد الشيخ عبد الله بن سعيد الحاحي، وكذلك في عهد ابنه يحيى، حيث رأينا أنه انتسخ له مقدمة فتح الباري عام 1014 هـ، بعد ذلك انتقل البوسعيدي إلى بزو، ثم إلى زاوية الدلائيين، وانتهى به المطاف في فاس حيث توفي.[60]

3 -علاقات الزاوية بالمخزن قبل ثورة الشيخ يحيى الحاحي (1012-1022هـ/1603-1613م)

يفيدنا التمنارتي أن الشيخ يحيى ظل، منذ توليه رئاسة الزاوية وإلى حدود سنة 1017هـ، منشغلا بشؤون التدريس وتربية المريدين[61]. وهو ما يعني ابتعاده عن الخوض في غمار الصراعات السياسية، التي كانت على أشدها خلال هذه المرحلة، بصفة مباشرة. ولعل السبب في ذلك يعود إلى عاملين اثنين :

- تأثر يحيى بسلوك والده، الشيخ عبد الله بن سعيد، في الابتعاد عن الانحشار في صراعات الأسرة السعدية الحاكمة.

- انزياح الضغط المخزني، الذي ظلت ترزح تحته الزاوية طيلة عهد أحمد المنصور، بفعل تصدع أركان المخزن السعدي، وانشغال أبناء المنصور بتطاحناتهم على العرش.

وقد سمحت هذه الظرفية الجديدة، بوقوع تحول جذري في طبيعة علاقات زاوية زداغة بالمخزن السعدي، أو ما بقي منه على الأقل، ممثلا في شخص السلطان زيدان الذي رأيناه يصبح ملكا على سوس منذ سنة (1013هـ /1604)م.

(58) المختار السوسي، خلال جزولة، ج 2، ص.22.

(59) محمد المسوني، م .س، ص.97.

(60) أحمد بزيد الكنساني، م .س، ص.122.

(61) التمنارتي، الفوائد، ورقة: 39.

1-3 حدود سلطة المخزن بسوس خلال هذه المرحلة :

دخلت منطقة سوس في طاعة السلطان زيدان بن المنصور منذ سنة (1013هـ/1604م)، حيث تزعّم أخواله، عرب الشبانات، رفض قبائل المنطقة بيعة أخيه أبي فارس، ونادوا به ملكا عليهم[62]. وقد رأينا أن وساطة الشيخ عبد الله بن مبارك الأقاوي، نجحت في إقناع أبي فارس بالتنازل عن سوس لأخيه زيدان، الذي استقر بتارودانت مرفوقا بهذا الصالح وكذا بالقائد عزوز الوزكيتي.[63] وقد ظل زيدان يحاول توسيع نفوذه خارج هذا الإقليم، مرة نحو سجلماسة (1606)، وأخرى نحو مراكش (1607). لكنه كلما تعرض لانتكاسة، أثناء صراعاته مع أخويه : أبي فارس، ومحمد الشيخ المامون، كان سوس دائما هو الملجأ والملاذ[64]. وهذا ما يؤكد أن نفوذ زيدان لم ينحسر عن هذا الإقليم - أو على الأقل عن عاصمته تارودانت - طيلة الفترة الممتدة بين (1013-1022 هـ). لكن التساؤل الذي يطرح نفسه بإلحاح هو: ما هي حدود سلطة زيدان في سوس ؟ هل شملت كل المجال الجغرافي الذي يحمل هذا الاسم ؟

أمام غياب الوثائق والمعلومات الكافية، لا يمكن الجزم بصفة مطلقة بحدود هذه السلطة ومجالها، ولكن يمكن مع ذلك إبداء بعض الملاحظات :

- لم يستتب أمر جبال سوس للسعديين إلا بعد عناء طويل، ولم تَنقدْ لهم إلا بقوة الحديد والنار. وقد رأينا مؤرخ السعديين الرسمي، الوزير أبا فارس عبد العزيز الفشتالي، يؤكد أن القبائل الجبلية بسوس لم تحسن طاعتها إلا بعد حملة المنصور على المنطقة سنة (988 هـ/1580م)[65]. وكان دافع هذه القبائل إلى التمرد، في الغالب، إجحاف السياسة الجبائية التي نهجها أحمد المنصور على الخصوص.

- لم يتوان زيدان، منذ استقراره بتارودانت، في فرض ضرائب مرتفعة القيمة، وهو ما كان سببا في رحيل الشيخ عبد الله بن مبارك، وكذا القائد عزوز عن المدينة، لمّا لم ينتصح زيدان، ولم يأخذ برأييهما[66].

---

(62) Meunié (D.J), le Maroc saharien .., Op.cit, II, P 592.

(63) Ibid, P 594، تحدث زيدان عن هذه الوساطة بقوله: "دخلت لسوس، وجعلت ولي الله العارف به أبا محمد عبد الله مبارك واسطة بيني وبين أخي، حتى اجتمعت بأهلي": الإفراني النزهة، ص. 325.

(64) رأينا السلطان زيدان يفر، أمام مناورات أخيه أبي فارس، من سجلماسة إلى سوس سنة: 1605. وهو نفس ما سيقوم به أيضا عند انهزامه أمام قوات ابن أخيه، عبد الله بن المامون، بمراكش سنة 1607. وسنراه يعود إلى نفس الأمر عندما أخرجه ابن أبي محلي من عاصمته سنة 1611.

(65) الفشتالي، مناهل الصفا، ص. 31-32.

(66) Meunié (D.J), le Maroc..., Op.cit, II, P. 594

إن استحضار الملاحظتين السابقتين يجعلنا نستنتج أن زيدان لن يحتفظ تحت سلطته سوى بقبائل سهل سوس، في حين أن القبائل الجبلية لن تفتأ أن تعود إلى الاستقلال عن نفوذه. خاصة وأن زيدان لم يكن له من قوة وجبروت أبيه ما يكفيه لإخضاعها.

هكذا سنرى قبائل جزولة تلتف حول أبناء الشيخ أحمد بن موسى السملالي بزاويتهم في تازروالت، لتكوّن قوة سياسية تزعّمها حفيده إبراهيم بن محمد (سنة 1017 هـ)[67]. وقد بدأ هذا الأخير تحركاته العسكرية بمهاجمة إحدى الزوايا، الموالية للسعديين على أغلب الظن، سنة (1018 هـ/1609م)[68]. لكن نفوذه ظل منحصرا في جنوب سوس، ولم يصل قط إلى تارودانت، كما اعتقد ذلك بعض الباحثين[69]. وبقيام إبراهيم بن محمد هذا، فقد زيدان سيطرته على جنوب سوس(جزولة)بصفة نهائية.

على عكس ذلك، ظل نفوذ زيدان ثابتا في تارودانت والمناطق السهلية المحيطة بها، التي تشكل مجالا للقبائل العربية وعلى رأسها الشبانات، أخوال السلطان زيدان. وكان هؤلاء هم الذين رفضوا بيعة أبي فارس، واستدعوا أخاه زيدان ليحكم سوس منذ 1604.[70] ومما يؤكد نفوذ زيدان بالمنطقة، حديث التمنارتي، في مواضع عديدة، عن اعتساف عماله بتارودانت، إلى درجة أن التمنارتي نفسه كان من ضحاياهم، حيث أودعوه السجن سنة 1016 هـ،[71] وكذا رسالة زيدان إلى عامله بتارودانت، القائد جرمان، يوصيه خيرا بأهل المدينة المحمدية. والرسالة بتاريخ (1017هـ/1608م)، وهي تحمل من الأوصاف في حق سكان هذه المدينة ما يؤكد اعتزاز زيدان باستمرار طاعتهم، ومما جاء فيها: "**...القائد جرمان، حفظكم الله ورعاكم... وإنّا نوصيكم خيرا بأهل حضرتنا المحمدية حرسها الله، فإنهم ممن يدلي بالخدمة , قبلُ غيرهم من أهل حواضرنا... وذلك بأن تسلكوا بهم المسلك الحسن في مرتفقاتهم من المزروعات والجنان وجلاب الأرزاق للحاضرة، بحيث لا تمتد إليهم يد بظلم...**"[72]

أما قبائل السفح الجنوبي من الأطلس الكبير الغربي، وقبائل رأس الوادي الواقعة إلى شرق تارودانت، فيبدو أن سلطة عامل زيدان على تارودانت لم تكن تطالها، مما جعلها

(67) المختار السوسي، إليغ قديما وحديثا، ص. 38.
(68) S.I.H M, Pays-Bas, t : I, p . 473
(69) محمد حنداين، تارودانت ومحيطها التاريخي، ص.259.
(70) Meunié (D.J), le Maroc saharien, T · II, P. 592.
(71) التمنارتي، الفوائد، ورقة: 166
(72) المصدر نفسه، ورقة. 231.

تعيش في نوع من الاستقلال. ولعل غياب السلطة المركزية في أوساط هذه القبائل، هو الذي فسح المجال لظهور الصّراعات والحروب كوسيلة لحل المشاكل المطروحة فيما بينها ، ولم يكن يخفف من هذه الصّراعات إلا النفوذ الروحي لزاوية تافيلالت إدا أو زداغ، وشيخها يحيى الحاحي الذي كان يتدخل لإنهاء الاقتتال.

2-3 الشيخ يحيى الحاحي يلعب دور الوساطة بين القبائل وبينها وبين المخزن:

ظلت، خلال هذه المرحلة، علاقات زاوية زداغة بالمخزن السعدي، ممثلا في شخص السلطان زيدان، حسنة على ما يبدو. بحيث لم نقف، في مصادر الفترة، على ما يناقض هذا الحكم. بل على العكس من ذلك، سبق ورأينا الشيخ يحيى وهو يُدرّس وينتقل بالسّكنى بين زاويته بإدا أو زداغ، وبهوارة، وبين تارودانت[73] التي كانت تحت سلطة زيدان، وبها يستقر عامله القائد جرمان، فكان الشيخ يحيى يدخل حاضرة سوس ويُدرّس بها دون منع أو تضييق. وهو ما يعني زوال الحصار الذي كان مضروبا على الزاوية وأهلها خلال عهد أحمد المنصور.

الأكثر من كل هذا، أننا سنشهد سنة (1018هـ/1609م) تغيُّرا جذريا في موقف زاوية تافيلالت من المخزن، حيث وقفنا على رسالتين للشيخ يحيى الحاحي وجههما إلى بعض قبائل سوس القاطنة شرق تارودانت (**أولاد بورايس، أولاد يحيى، المنابهة، أيت ايكاس...**)،[74] وهما تعكسان هذا التحول بوضوح. وتمكننا قراءة الرسالتين من تسجيل عدد من الملاحظات نجملها فيما يلي :

أ – أن قبائل رأس الوادي من سوس (تقع شرق تارودانت على امتداد وادي سوس) كانت تعيش خارج نفوذ وسلطة ما تبقى من المخزن السعدي، ممثلا في عامل السلطان زيدان على تارودانت، القائد جرمان.

ب – أدى غياب السلطة المخزنية، في أوساط هذه القبائل إلى دخولها في دوامة من الفتن والصراعات، انتهت بها إلى الانقسام إلى فريقين متقاتلين، تحددهما إحدى الرسالتين السالفتي الذكر على النحو التالي: "**بني أبي رايس وأولاد يحيى ومن انحاز إلى جانبهم "ثم" المنابهة وإيكاسة ومن انحاز إلى جهتهم ووالاهم.**"

(73) المختار السوسي، المعسول، ج. 19، ص.84.
(74) تسلمنا نسخة من الرسالتين من الأستاذ الباحث أحمد بزيد الكنساني بتارودانت، وسيجد القارئ نصيهما في الملحق، آخر هذا الكتاب

وقد خاطب الشيخ يحيى الحاحي أعيان الفريقين بقوله: "**أما بعد، فإنه بلغنا أنكم، عياذا بالله، تسارعتم بخيلكم ورجلكم إلى إسخاط خالقكم سبحانه جل وعلا، وإرضاء عدوكم اللعين وحزبه الضالين من شياطين الإنس والجن، من نبذ السلم والهدنة وراءكم، والأخذ في أسباب الشر والتعب والفتنة، وإضاعة أعماركم التي، هي مالكم، فيما يُلحقكم بالدرك الأسفل من النار، ويوردكم - والحول لله - دارة البوار، فإنا لله وإنا إليه راجعون...**"[75].

ج - كان الشيخ يحيى يتدخل لتهدئة هذه الفتن، ويدعو القبائل المتناحرة إلى السلم والكف عن التطاحن. ومن ثم أصبح يلعب دور الوساطة بينها، ويملأ الفراغ الذي تركه غياب سلطة المخزن في القيام بوظيفة التحكيم بين هذه القبائل.

د - إن سلطة الشيخ يحيى التي خولت له القيام بمهام التحكيم هذه، لم تكن سلطة زمنية مستمدة من الحقل السياسي/الدنيوي، بل كانت في جوهرها سلطة روحية/دينية يستمدها من موقعه كصوفي أجمع معاصروه على ولايته، واعتقدوا في حلول بركته، من جهة، وكعالم مشارك ملم بأحكام الكتاب والسنة من جهة ثانية. وعلى هذا الأساس لم تكن دعوته لهذه القبائل، بالكف عن الاقتتال، مقرونة بالوعيد بعقوبة دنيوية، وإنما انبنت على أساس التذكير بموقف الشرع من اقتتال المسلمين فيما بينهم، وترهيب من لم يمتثل من الفرقين بما ينتظرهم من سوء المآل، وغضب الله تعالى. ومما خاطبهم به الشيخ يحيى في هذا السياق : "**ألم يبلغكم قوله، صلى الله عليه وسلم : «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»؟ أليس لكم في كتاب الله العزيز وسنّة نبيّه، صلى الله عليه وسلم، ملجأ ومعتصم؟ هل لا رددتم أمركم وفصل ما بينكم إلى كتاب الله، وحكمتم على أنفسكم وإخوانكم بما حكم به رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بين أمته، إن كنتم منهم؟**"

فيا ويحكم، بعتم أنفسكم من الشيطان الرجيم، وخلعتم أزمتكم من يد الرءوف الرحيم، الهادي لمن اقتفاه واتبعه في الدنيا لأيسر ملة سمحاء، وأهدى طريق مستقيم، وفي الآخرة إلى جنة المأوى، ورضوان من الله أكبر، وفوز عظيم. وجعلتموها في أيدي العدو اللعين الرجيم الخبيث، حامل لواء الخزي واللعنة في الدنيا والآخرة، الداعي إلى عمارة دار الهوان والانقلاب إلى الدمار والخسران. عياذا بالله من سوء القضاء، ومن درك الشقاء، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم". ثم يختم الشيخ يحيى رسالته هذه

(75) الرسالة مؤرخة بذي الحجة عام: 1018 هـ.

بتجديد الدعوة إلى الاحتكام للشرع، وإنذار المخالفين بالعقاب الإلهي قائلا : **"واطلبوا حقكم بالشرع الذي تطلب به حقوق المسلمين. فكل خطب، ولو بلغ ما بلغ، ففي كتاب الله العزيز دواؤه، وفي سنة سيد المرسلين،(صلى الله عليه وسلم)، حكمه وشفاؤه.**

ونؤكد عليكم وندعوكم بدعاية الله ورسوله وحزبه المفلحين، أولا وآخرا، أن تكفوا عن الشر وتجنحوا للسلم ساعة يصلكم مكتوبنا هذا. ومن تعدى وبغى، وطلب غير الصلح والعافية بعد ذلك، فالله ولي الانتقام منه، وجعله عبرة للمعتبرين، وسلفا ومثلا للآخرين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والله حسبنا وحسيبكم وهو على ما نقول وكيل، ولله الأمر من قبل ومن بعد وهو العزيز الرحيم.".[76]

هـ - لم تظهر للشيخ يحيى، خلال هذه المرحلة، أية طموحات سياسية، ذلك أنه لم يحاول استغلال نفوذه الروحي/الديني على القبائل في اتجاه تحويله إلى نفوذ سياسي/زمني، بل على العكس من ذلك وظّف هذا النفوذ لجمع الكلمة وتدعيم سلطة المخزن التي آلت إلى الزّوال. وذلك عبر لعب دور وساطة ذات اتجاهين: فمن جهة حاول أن يقنع هذه القبائل بالدخول في طاعة "الإمام" لضمان وحدة "جماعة المسلمين"، كما حاول، من جهة أخرى، أن يضمن لهذه القبائل عفو **"الإمام"**، وصفحه عن **"الجناة المكاثرين"**، و**"الأخذ بيد العاثرين"**. وهو ما يظهر بوضوح من رسالته الثانية،[77] التي تعكس أيضا منطلقات الشيخ يحيى للقيام بهذا الدور: والمتمثلة في اعتبار نفسه حاميا للشرع، داعيا إلى تحكيمه: منطلقا من وجوب تقديم "النصيحة" كواجب ديني على العلماء للأمة، وكذا من كونه "صالحا" مستجاب الدعاء، عليه أن يدعو بالخير لما فيه صلاح هذه الأمة. ومما جاء في هذه الرسالة: **"...فمن لم يستقم بشريعة رسول الله، ولم يطلب الدواء بكتاب الله، فاستقامته اعوجاج، وبرءه مرض، وحجّته فيما يدلي به زور ولجاج. وإن استظهرتم باتفاقكم على رأي وتأويل، فأمته صلى الله عليه وسلم لا تجمع على ضلالة. وراجع ظواهر النصوص بما أثبت بين سائر المسلمين من كون التأويل لا يفيد في الافتيات ومخالفة جماعة المسلمين.**

(...) واعلموا أني خاطبتكم لله نصحا كما فرضه وجعله من أركان الدين، فيا ليتكم تحبّون النّاصحين، وإن لا خير في قوم لا يتناصحون، ولا خير في قوم لا يقبلون النصح (...) وارجعوا إلى كلمه الأمة، واجنحوا للسلم والهدنة، واجتنبوا محاربة القبائل،

(76) نفس الرسالة.

(77) الرسالة الثانية مبتورة من أولها، ولا تحمل تاريخا محددا، لكن يبدو من سياقها أنها كتبت سنة: 1018 هـ أو بعدها بقليل.

واتركوا كل ما يؤدي بكم إلى معاداة أولي الأمر ومساءتهم، فليس لكم في ذلك إلا إسخاط الله، والتعرض لعقابه دنيا وأخرى... ونحن إخواننا ناديناكم لما تحقق لكم ولجميع الأمة صلاحه دنيا وأخرى. فتدبروا قوله جل ثناؤه :«يا أيها الذين أمنوا أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلا» (...) ومن حقكم علينا أنّا لا نألوا جهدا في الدعاء والتوسّل بشفيعنا صلى الله عليه وسلم وصلحاء أمته رضي الله عنهم في خير سفينتكم، وإخراج أموركم على خير فيما منيتم به، وإبلاغ الخبر أيضا في تأمير الإمام أصلحه الله، وأصلح به لكم، والعفو عما إليه العفو عنه واجب حقه عليكم، والصفح عن زلات الجاني المكاثر، والأخذ بيد العاثر..."

إن استقراء هذه العناصر الهامة التي يؤكدها مضمون الرسالتين السابقتين، يُمكّننا من الخروج ببعض الخلاصات الأساسية حول وضعية الشيخ يحيى الحاحي، وحقيقة موقفه من الأحداث والصراعات السياسية التي كان سوس، والمغرب عامة، مسرحا لها خلال هذه الفترة. ويمكن إجمال هذه الخلاصات فيما يلي :

أ - تمتع الشيخ يحيى الحاحي بنفوذ روحي كبير في أوساط قبائل سوس، والمستوطنة بالقسم الشمالي منه على الخصوص، مما أهله للقيام بوظيفة التحكيم في مختلف النزاعات والصراعات الطارئة بينها، وكذا للعب دور الوساطة بين هذه القبائل وبين المخزن "الشرعي" ممثلا في شخص "الإمام" زيدان بن أحمد المنصور. وهو ما ضمن للمنطقة نوعا من الاستقرار لم تشهده باقي المناطق المغربية خلال هذه الفترة[78].

ب - باستثناء هذه الأدوار، التي أهلته لها وضعيته كعالم صوفي كبير، لم تكن للشيخ يحيى، خلال هذه المرحلة (1012-1018هـ/1603-1609م)، أية طموحات سياسية ظاهرة، أو أي نشاط عسكري، مما أدى إلى نشوء علاقات جد حسنة بينه وبين السلطان زيدان. هذا الأخير الذي ظل محتفظا بنوع من النفوذ في القسم الشمالي من سوس، أو على الأقل في حاضرته تارودانت وما يحيط بها من القبائل السهلية.

(78) تشير مونيي إلى أن إقليم سوس الذي ظل طيلة العصور الماضية أكثر أقاليم المغرب تمردا وإثارة للقلق، سيصبح خلال هذه الفترة، الإقليم الوحيد الذي يعرف استقرارا وهدوءا مقارنة مع باقي أقاليم البلاد التي ظلت متوترة... انظر بهذا الصدد:
Meunié (D.J), le Maroc saharien, T · II, P. 594.

3-3 مـا حقيقـة النشـاط السياسـي المنسـوب للشيخ يحيـى فيمـا بيـن (1018-1022هـ/1609-1613م)؟

انطلاقا من سنة (1018 هـ/1609م) - وهو تاريخ تحرير الرسالتين اللتين استفدنا منهما الخلاصات أعلاه -وإلى حدود (1022 هـ/1613م)، الذي يمثل تاريخ خروج الشيخ يحيى إلى مراكش لإنجاد السلطان زيدان والقضاء على الثائر ابن أبي محلي، تدخل أخبار الشيخ يحيى، ونشاطاته، وتحركاته في دوامة من الغموض المطبق. فالمصادر المغربية لم تول كثيرا من الاهتمام لأخبار يحيى الحاحي، إلا منذ رحيله لإنجاد زيدان (1022هـ/1613م)، في حين تلخص كل مراحل حياته السابقة في عبارات فضفاضة خالية من التفاصيل. بحيث إذا أزلنا المعلومات المتعلقة بشيوخه، وبعض إنتاجاته الشعرية، نحصل على الصورة التالية التي رسمها الإفراني : "**...ولما مات** (يقصد عبد الله بن سعيد الحاحي) **جلس ولده يحيى هذا موضعه، ونهج سبيله. وكان يحيى فقيها مشاركا (...) وكانت ليحيى شهرة عظيمة بالصلاح، وأتباع كثيرة كوالده وجده (...) فتصدى لأمور الملك ودخل في أحوال السلطنة.**"[79] وهي نفس العبارات بالضبط التي ستردها المصادر اللاحقة التي نقلت عن الإفراني.[80] كما أنه نفس المعنى الذي عبر عنه مؤرخ سوس، المختار السوسي، مع اختلاف في المبني حيث قال: "**... ثم لمّا توفي والده سنة 1012 هـ، واختلّت أحوال أولاد المنصور الذهبي، ونعقت أبناء الزوايا والمرابطون من كل ناحية، برز من بينهم (يقصد يحيى الحاحي). وقد اختاره زيدان للإستنصار، يوم زأر عليه أبو محلي المكتسح من (وادي السّورة)... ودبّ إلى (مراكش) فأجفل منه ملكها زيدان إلى (سوس) محتميا بالمترجَم**"[81].

لقد أفضى صمت المصادر المغربية المطلق، عن أخبار يحيى الحاحي وتحركاته ومواقفه، خلال هذه المرحلة، إلى ترك الباب مفتوحا أمام بعض الباحثين الأجانب، ومن اعتمدهم من المغاربة، لطرح عدد من الافتراضات التي لا تستند، على مبلغ علمنا، إلى أي دليل تاريخي. فصاغوا لأحداث هذه المرحلة بسوس صورة يشوبها الاضطراب والخلط في ترتيب الأحداث والشخصيات والتواريخ.[82]

(79) الإفراني، نزهة الحادي، ص.310-311.

(80) انظر مثلا: الناصري، الإستقصا، ج. 6، ص 35 وكذا عباس ابن إبراهيم المراكشي، الإعلام، ج. 10، ص. 222.

(81) المختار السوسي، المعسول، ج. 19، ص. 84.

(82) سنقدم هنا كنموذج، الفصول المتعلقة بالصراع الحاحي السملالى عند كل من : Meunie, le Maroc Saharien ، ومحمد حداين، "تارودانت ومحيطها التاريخي خلال القرنين 17-18" علما بأن هذا الأخير اعتمد كثيرا على طروحات جاك مونيي، دون تمحيص، فيما يتعلق بهذا الموضوع، وكذا على: "le Tazeroualt, C. Justinard" .

تعتقد السيدة مونيي أن سيدي يحيى[*] استقر بتارودانت حوالي (1612-1611م/1020-1021 هـ)[83] وشرع في القيام ببعض الإصلاحات، وأن زيدان لمّا أخرجه ابن أبي محلي من مراكش، ورد على سيدي يحيى بتارودانت، وكان أمير سوس إذ ذاك، فمنحه حمايته،[84] لأنه لم يكن آنذاك قد صرح بمعارضته.[85]

تضيف نفس الباحثة أنه، على عكس ذلك، لم يفتأ سيدي يحيى أن واجه سيدي إبراهيم، الذي أصبح أول ملك بتازروالت منذ (1611م/1019-1020هـ)، وأن هذا الأخير قتل سنة (1613م/1022هـ)وهو يحارب سيدي يحيى[86]. ومنذ ذاك أصبح سيدي علي أميرا بتازروالت إثر مقتل أخيه سيدي إبراهيم، ثم استقر بتارودانت وسيطر على سوس، في حين كان سيدي يحيى مشغولا بقتال ابن أبي محلي (ربيع 1613 م)[87]. وبعد أن أعاد يحيى السلطان زيدان إلى عرشه، سيتجه للسيطرة على تارودانت التي طرد منها سيدي علي أمير تازروالت (1614/1023 هـ)[88].

يعتمد الأستاذ حنداين، بخصوص هذا الموضوع، على نفس هذه الخلاصات التي توصلت إليها مونيي، فيرتّب أحداث هذه الفترة بشكل مطابق لما قامت به .لكنه مع ذلك تنبّه إلى أن هنالك ثمة خلط في تكرار الصراع المسلح حول تارودانت بين الحاحيين والسملاليين مرتين: مرة بين سيدي يحيى وسيدي إبراهيم، والثانية بينه وبين سيدي علي، مع أن ذلك لم يحدث سوى مرة واحدة. لذا يفضل الباحث الاعتماد على ما أورده الكولونيل جوستينار[89] فيؤكد معه، أن الذي احتل تارودانت، أثناء غياب سيدي يحيى في مقاتله ابن أبي محلي، هو سيدي إبراهيم وليس سيدي علي. وأن سيدي يحيى أخرجه منها بعد عودته من مراكش وقضى عليه في معركة "أسكا أو بلاّغ".[90] من ثم يخلص هذا الباحث إلى طرح يناقض ما ورد في كل المصادر المغربية، من الإفراني إلى السوسي، حيث ينفي وقوع أي صراع مسلح بين سيدي يحيى وسيدي علي، ويقرر أن ذلك كان بينه وبين سيدي إبراهيم![91].

(*) سنستعمل خلال هذه الفقرة اسم "سيدي يحيى" عوضا عن "الشيخ يحيى" الذي نستعمله، وكذا "سيدي إبراهيم" عوض إبراهيم بن محمد التازروالتي، لأن اسميهما وردا بهذه الصيغة عند كل من مونيي وحنداين، وسنتوقف عن استعمالها عند الانتهاء من مناقشة طروحات الباحثين.

(83) Meunié, le Maroc Saharıen, II, P. 598.

(84) Ibid, P: 611...

(85) Ibid, P: 598...

(86)Ibıd

(87))Ibıd, P; 614...

(88))Ibid, P; 616...

(89) C.Justınard, le Tazeroualt petıt Royaume du sous. أنظر حنداين، تارودانت ومحيطها التاريخي، ص. 259-260.

(90) محمد حنداين، تارودانت ومحيطها التاريخي، ص. 259-260.

(91) م.ن، ص.264-265 : بينما تجمع المصادر المغربية على أن صراعات مريرة وقعت بين سيدي يحيى وسيدي علي (أبو حسون السملالي). وصفها الإفراني بـ: "وقائع تشيب لها النواصي، ومعارك يهرم لها الرضيع"، النزهة، ص. 311، وقد أخذ عنه هذا الوصف الناصري وغيره.

إن الصّورة التي رسمها الباحثان المذكوران لنشاط الشيخ يحيى الحاحي خلال الفترة الممتدة بين: (1018-1022هـ/1609-1613م)، ولوقائع الصراع السملالي الحاحي حول تارودانت، تتميز بكثير من الاضطراب، والخلط بين الشخصيات والوقائع، وبغياب كبير لتدقيق التواريخ. وهو ما جعلهما ينسجان أحداثا لا تتفق مع الواقع التاريخي، وسنقوم بتوضيح ذلك الآن، من خلال استقراء بعض الإشارات التي وردت في مصادر مغربية عايش أصحابها هذه الأحداث، بل وكان بعضهم طرفا فيها. وإن كانت إشاراتهم هذه قد وردت بشكل عارض ليس الغرض منه التأريخ لما نحن بصدده، فإنها مع ذلك تفيد، في توضيح بعض هذه الأمور، إفادة بالغة.

أما أوّل هؤلاء فهو القاضي أبو زيد عبد الرحمان التمنارتي، تلميذ الشيخ يحيى، وقاضي الجماعة في إمارته فيما بعد، والذي أورد أثناء ترجمته لشيخه يحيى ما يلي: **"وردت عليه سبعة عشر وألف (1017هـ)، فقرأت عليه حصة من الجامع الصحيح، والأربعين للنووي والأربعين الإبريزية ...**[92]" ثم أضاف : **"ثم تابعت المسير إليه في عدة من السنين أقرأ عليه صحيح البخاري بتمامه كل سنة في رمضان، حتى قام لجمع الكلمة والنظر في مصالح الأمة.**"[93]

وفي الباب الذي خصّصه التمنارتي للأسانيد، من كتابه (الفوائد الجمة)، وأثناء حديثه عن سنده في رواية صحيح البخاري، قال: **"حدّثني به مولانا الإمام أبو زكرياء يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي الداودي، قراءة لجميعه عليه خمس مرات بزاويته، وإجازة ومشافهة، وكتابة لروايته عنه...**"[94].

تفيدنا إشارات التمنارتي هذه في إثبات بعض الأمور الأساسية التي تساعد في تصحيح كثير من الوقائع التي وردت عند الباحثين، والتي عرضناها سابقا، حيث يؤكد لنا ما يلي :

أ - أن تلمذة التمنارتي على شيخه يحيى بدأت سنة (1017هـ/1608م)، وأنه تتلمذ عليه بعد ذلك خمس سنين، يأخذ عنه صحيح البخاري بتمامه كل سنة في رمضان. وبذلك تكون هذه التلمذة قد تمت فيما بين (1017-1022 هـ/1608-1613م)، وذلك بزاوية تافيلالت إداوزداغ.

---

(92) التمنارتي، الفوائد، ورقة: 39.

(93) م .ن، ورقة: 40.

(94) م .ن، ورقة: 105.

ب - ظل الشيخ يحيى خلال هذه المرحلة قائما بوظائف التدريس العلمي والتربية الصوفية، وظل مقر إقامته خلالها هو زاويته بتافيلالت وليس تارودانت.

ج - أن الشيخ يحيى لم ينشغل بصفة مباشرة بأمور السياسة، وأنه لم يقم "لجمع الكلمة والنظر في مصالح الأمة" إلا ابتداء من سنة(1022هـ/1613م)، وهي آخر سنة أخذ منه فيها التمنارتي، كما أنها السنة التي علمنا أنه قام فيها بنصرة زيدان، والقضاء على ابن أبي محلي.

من هنا يتضح أن القول باستيلاء الشيخ يحيى الحاحي على تارودانت سنة (1611 م/1020هـ)، وهي إذ ذاك في سلطة زيدان، لا أساس له من الصحة.كما يتأكد لدينا أن استضافته لزيدان، لما استصرخه واستجاشه على ابن أبي محلي، تمت بزاوية زداغة- كما تؤكد ذلك بعض المصادر المغربية-[95] وليس بتارودانت كما اعتقد الباحثان المذكوران.

وأما ثاني مصادرنا فهو القاضي عيسى بن عبد الرحمان السكتاني، الذي ظل قاضي الجماعة بتارودانت إلى أن استولى عليها الشيخ يحيى الحاحي سنة (1023هـ/1614م)، فغادرها السكتاني إلى أن استقر بمراكش، وكان سبب رحيله أنه لم يوافق الشيخ يحيى على خلع بيعة السلطان زيدان. وعلى إثر ذلك بعث برسالة إلى يحيى لعله يقنعه بالعدول على ما أقدم عليه[96]. ومما ورد في هذه الرسالة: **"أنه استنصحني**(يقصد الشيخ يحيى) **على دفاع ابن أبي محلي، فنصحته وقلت له: إن هذا لا تستقيم معه الديانة (...)، ثم لما نزل وكان على باب الغزو من رودانة، خلوت به فقلت له إذ ذاك إن الناس يقولون كذا وكذا، وعرّفته إذ ذاك بما عرفته من أبناء الزمان، فجمعنا في رملة إلى الآن أتخيل حرّها، وتبرأ من كل ما يقال..."**[97]

يرجع تاريخ كتابة هذه الرسالة إلى فترة استقرار السكتاني بمراكش بعد إعلان الشيخ يحيى ثورته على زيدان (1023هـ/1614م)، أما الأحداث التي يتضمنها ما اقتطفناه منها أعلاه، فتعود إلى الفترة التي كان فيها الشيخ يحيى يستجمع قواه لمقاتلة ابن أبي محلي، أي حوالي بداية (1022هـ/1613م). وهي تفيدنا بإشارات هامة تتطابق تماما مع مضمون ما رأيناه عند التمنارتي، حيث يمكن أن نستخلص منها ما يلي :

(95) الإفراني، النزهة، ص. 306، وكذا: الناصري، الإستقصا، ج. 6، ص.32.

(96) بخصوص رسالة السكتاني هذه، راجع الهامش رقم (40) من هذا الفصل.

(97) عباس بن إبراهيم، الإعلام، ج.1، ص.241.

أ - أن يحيى لم يكن قد استقر بعد بتارودانت، إلى حدود هذا التاريخ. وأنه نزل إليها من زاويته قصد استشارة السكتاني، وإقناعه بالموافقة على مقاتلة ابن أبي محلي، باعتباره قاضي الجماعة بالمدينة. وربما كذلك لاستجماع بعض قوات زيدان التي لا تزال متواجدة بها.

ب - إن من بين ما يؤكد هذا الأمر، أن يحيى حتى عندما نزل آنذاك إلى تارودانت، لم يستقر بالقصبة، التي هي المقر المعتاد لكل من يحكم المدينة، ومقر سكنى يحيى نفسه عندما أعلن إمارته فيما بعد، وإنما نزل خارج أسوار المدينة من الجهة الغربية.

ج - أن الشيخ يحيى لم يقم بعد بما يؤكد طموحاته السياسية، من أعمال عسكرية أو ما شابه ذلك، و إلا لما خفي الأمر على القاضي السكتاني حتى يستفسر الشيخ يحيى عن الإشاعات التي بدأت تروج. إذن فالأمر لا يعدو مجرد إشاعات، اعتمدت، على الأرجح، على مكانة يحيى وما كان يقوم به من وظائف التحكيم والوساطة من جهة، وعلى ما بدأ يقوم به من استجاشة القبائل السوسية لمواجهة ابن أبي محلي من جهة ثانية.

د - يشهد السكتاني ختاما، وهو العدل الثقة، بأن الشيخ يحيى، وإلى حدود هذا التاريخ، تبرأ من كل ما نسب إليه من هذه الأمور.

إنها عناصر جديرة، في نظرنا، بأن تقطع الشك، وتنفي قيام الشيخ يحيى بأي نشاط سياسي صريح، أو عمل عسكري مذكور قبل سنة (1022 هـ/1613م). ومن ثم يصبح كل ما راج في بعض الدراسات الحديثة، مثل التي رأينا، لا يعدو أن يكون اجتهادات غير موفقة لإعادة رسم أحداث هذه الفترة وصراعاتها. ويبدو أن السيدة مونيي اعتمدت، ربّما، على ترجمة خاطئة لنص رسالة السكتاني، وقد تكون فهمت العبارة التالية: **"ثم لمّا نزل وكان على باب الغزو من رودانة"**. على أنها تصريح بنزول الشيخ يحيى لغزو تارودانت، في حين أن المقصود فقط هو تعيين المكان الذي نزل به يحيى، وهو(**باب الغزو**) ويعرف حاليا عند سكان المدينة بـ: (باب تارغونت)، ويقع إلى الجهة الغربية من أسوار المدينة.[98]

ولعل أبلغ ما يمكن أن نقطع به دابر الشك في هذا الباب، تصريح الشيخ يحيى الحاحي بعدم قيامه بأي نشاط من قبيل ما نسب إليه قبل سنة (1022 هـ/1613م)، وكما

(98) حول هذا الباب، وباقي أبواب تارودانت الخمسة، انطر: نور الدين صادق، تارودانت فيما بين (1068-1073 هـ/1658-1662-م) من خلال مقيدات محمد بن عبد الرحمن التلمساني (ابن الوقاد)، ص. 46، الهامش: (21)، الطبعة الأولى 1998.

جرت العادة بذلك، فإن الاعتراف سيد الأدلة. لقد خاطب الشيخ يحيى السلطان زيدان، في إحدى المراسلات التي جرت بينهما، مذكرا إياه بنصرته له، يوم استنصره لدفاع ابن أبي محلي، وألح عليه في ذلك حتى أقنعه بمقاتلته، فقال: "**وقد كنّا مقتصرين على التغيير باللسان والقلب، لكون التغيير العام إليكم، حتى جذبتمونا إليه ودلّلتمونا بارتكاب أصعب مرام عليه.**"[99]

فيحيى إذن كان مقتصرا على التغيير باللسان والقلب، على ما هو عليه دأب العلماء والصلحاء، أما ثالثة درجات تغيير المنكر، وهي التغيير باليد، مما هو موكول إلى رجال السياسة والحرب (أولو الأمر)، فإن يحيى لم يقدم عليه إلا لمّا جذبه إليه زيدان، يوم أقنعه بقتال ابن أبي محلي سنة(1022هـ/1613م).

أما بخصوص مقاتلات الشيخ يحيى، وأمير تازروالت إبراهيم بن محمد السملالي، فيكفي أن نعود إلى ما أثبته مؤرخ سوسي عاش بعد هذه الأحداث بنحو قرن،[100] وهو داود بن علي بن محمد الكرامي صاحب كتاب (بشارة الزائرين)، وهو كتاب في الوفيات، حيث أورد أثناء ترجمته لأسرة السملاليين أبناء الشيخ أحمد بن موسى، ما يلي: "... **ومنهم حفيده سيدي إبراهيم بن محمد، القائم في العشرة الثانية من القرن الحادي عشر، توفي رحمه الله (بالكصيب بأسمن) ليلة الأحد التاسع والعشرين من جمادى الأخيرة عام ثمانية عشر وألف، وقد أوصى بالأمر لابن عمه سيدي الحسن بن علي بن سيدي أحمد بن موسى. فتولى بعده حتى مات(بتارشنين) يوم الأربعاء الخامس من ربيع الثاني عام عشرين وألف. ثم كانت مخالفة بين أولاد الشيخ، ومناوشات إذ ذاك حتى دخلت سنة إحدى وعشرين وألف، فتولى المرابط الإمام الشهير الهمام (...) سيدي علي بن محمد بن محمد بن القطب الكبير سيدي أحمد بن موسى...**"[101]

من خلال قراءة هذا النص، يمكننا أن نستخلص العناصر التالية:

أ - أن إبراهيم بن محمد التازروالتي توفي عام (1018هـ/1609 م)، وأن وفاته كانت (بالكصيب بأسمن)، وليس بأسكا أوبلاغ.

(99) الإفراني، النزهة، ص.313.

(100) يرى المختار السوسي أن وفاة داود بن علي الكرامي كانت بعد 1164 هـ، انظر :السوسي، رجالات العلم العربي في سوس، الطبعة الأولى، طنجة 1989.

(101) داود بن علي الكرامي، بشارة الزائرين الباحثين في الصالحين، ورقة: 17، مخطوط، خزانة الإمام علي العامة بتارودانت.

ب - أن الذي تولى بعده الزعامة بتازروالت هو ابن عمه الحسن بن علي، وأن هذا الأخير كانت وفاته سنة (1020هـ/1611م).

ج - أن علي بن محمد (أبو حسون السملالي) لم يتول إلا سنة (1021 هـ/1612م). وأن الفترة التي سبقت توليته كانت فترة مناوشات وخلاف بين أفراد البيت التازروالتي، دامت سنة كاملة لم يتمكنوا خلالها من تعيين قائد جديد.

إن تأمل هذه العناصر يدفعنا إلى تسجيل بعض الملاحظات أهمها :

- إذا كان إبراهيم بن محمد التازروالتي قد توفي سنة (1018هـ/1609م)، فكيف يمكنه أن يكون منافسا ليحيى الحاحي على تارودانت سنة 1611 ؟ وكيف يمكن لهذا الأخير أن يقضي عليه في معركة لم تجر أطوارها إلا أربع سنوات بعد وفاته؟

- كيف يمكن أن يكون للشيخ يحيى تحرك عسكري لمواجهة تزايد نفوذ التازروالتيين، وتهديدهم لتارودانت سنة1611م، إذا كان البيت التازروالتي يعيش، خلال هذه الفترة، مناوشات وصراعات داخلية لتعيين خلف لرئيسه المتوفى الحسن بن علي ؟ وهو أمر من شأنه أن يضعف التازروالتيين، ويجعلهم غير قادرين على القيام بأي عمل عسكري، خصوصا في اتجاه مدينة بعيدة عنهم كتارودانت، وبالتالي فإنهم لن يشكلوا أي تهديد يمكنه أن يستفز الشيخ يحيى، أو يدفعه إلى التحرك خلال هذا التاريخ.

من كل ما تقدم يمكننا أن نخلص إلى نتيجة أساسية، وهي أن تارودانت لم تكن هدفا لأي عمل عسكري فيما بين (1018-1022/1609-1612م)، لا من طرف السملاليين، ولا من طرف الشيخ يحيى الحاحي. ومن ثم يكون ما نُسب للشيخ يحيى من نشاط سياسي/عسكري، خلال هذه المرحلة، وكذا من صراع مع أهل تازروالت، لا يعدو أن يكون ضربا من الخيال لا غير. ذلك أن انشغاله بهذه الأمور لن يبدأ إلا مع رجوعه من قتال ابن أبي محلي بمراكش سنة (1023هـ/1613م)، كما أن صراعه مع آل الشيخ أحمد بن موسى حول تارودانت، لن ينطلق إلا في عهد رئيسهم علي بن محمد بودميعة (أبو حسون السملالي)، انطلاقا من سنة (1023هـ/1614م).

3-4 أسباب نجدة الشيخ يحيى للسلطان زيدان ضد ابن أبي محلي:

أسلفنا الحديث عن مكانة الشيخ يحيى الحاحي العلمية والصوفية، وعن كثرة أتباعه، والتفاف القبائل السوسية حول زاويته، وانقيادها لأوامره، مما أهله ليصبح حكما في

مختلف النزاعات المطروحة بينها. كما رأينا مدى حسن العلاقات التي ربطت الشيخ يحيى، خلال هذه المرحلة، بالسلطان زيدان، بل رأيناه يلعب دور الوساطة بين هذا السلطان وتلك القبائل، محاولا إقناعها بوجوب طاعة "الإمام" (زيدان) شرعا، وضامنا لها صفح هذا "الإمام" عن "الجاني المكاثر" من أفرادها و"الأخذ بيد العاثر" ... وإذا كان زيدان قد احتفظ إلى غاية (1022هـ/1613م) بنوع من السلطة في القسم الشمالي من إقليم سوس، فإن الفضل في ذلك يرجع إلى المجهودات التي ما فتئ يبذلها شيخ زاوية زداغة، يحيى الحاحي، من أجل استمرار هذه السلطة. لذا كان من الطبيعي أن يفكر زيدان في اللجوء إلى هذا الشيخ ليطلب حمايته، ويستنصره بمجرد انهزامه أمام ابن أبي محلي الذي دخل العاصمة مراكش، واستقر في القصر البديع سنة(1020هـ/1611م)[102].

لكن إذا كانت لاستنجاد زيدان بالشيخ يحيى الحاحي أسباب منطقية معروفة، فإن التساؤل يبقى مطروحا حول الدوافع التي جعلت يحيى يلبي نداء زيدان، ويهبّ لإغاثته، ويزحف على مراكش بجحافل القبائل السوسية للقضاء على ابن أبي محلي ؟ أهو مجرد الاقتناع "**بشرعية إمامة**" زيدان، ووجوب الدفاع عنه من طرف كل من تطوّق بيعته عنقه؟ أم أن يحيى وجد في هذه الظروف الفرصة المواتية ليحقق طموحاته السياسية،ويوسّع نفوذه الزمني على حساب زيدان وابن أبي محلي معا ؟[103]

تفيدنا المصادر أن الشيخ يحيى الحاحي تثاقل قبل أن ينجد زيدان ويهبّ لإنقاذ ملكه، فقد ذكر جاسوس إنجليزي، أن زيدان لجأ إلى الشيخ يطلب حمايته، وأن هذا الأخير أجابه إلى ذلك "بعد سنة أو سنتين."[104] وهو أمر يؤكده زيدان نفسه، حيث خاطب الشيخ يحيى في إحدى رسائله قائلا: "**أما تذكر استنهاضنا لكم المرة بعد المرة، وتكررت في ذلك إليكم الرسل حتى أجبت إليه**"[105]. فالأمر إذن تطلب وقتا طويلا، ومجهودا كبيرا

(102) هو أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد بن القاضي بن أبي محلي، من عائلة أولاد القاضي بسجلماسة ولد سنة(967 هـ/1560م)، رحل في طلب العلم إلى فاس، ثم صحب الشيخ محمد بن مبارك الزعري .ولما عاد استقر بالساوره، فذاع صيته كفقيه متصوف، لكنه سرعان ما ادعى المهدوية، ثم أعلن ثورته على أبناء المنصور سنة (1019 هـ /1610) على إثر تسليم محمد الشيخ المامون العرائش للنصارى، فسار إلى سجلماسة وملكها، ثم زحف على مراكش وهزم جيوش زيدان (1020 هـ/1611م)واستقر بالقصر البديع ودبّت في رأسه نشوة الملك، إلى أن قضى عليه الشيخ يحيى الحاحي في معركة جليز سنة (1022 هـ/1613م). من ضمن الذين ترجموا له: الإفراني، النزهة؛ القادري؛ نشر المثاني؛ الناصري، الاستقصا، المراكشي، الإعلام، وغيرهم.

(103) هذا الافتراض هو ما يفهم من طروحات بعض الباحثين الأجانب، والمغاربة، الذين زعموا أن ليحيى نشاطا سياسيا وعسكريا، سابقا على استصراح زيدان به، وقد سبق أن فندنا هذه المزاعم من خلال ما تقدم.

(104) S.I.H.M, Angleterre, T : II, p. 65، أنظر كذلك تقرير هذا الإنجليزي (جون هاريسون) مترجما عند محمد بن تاويت، من زوايا التاريخ المغربي، مجلة تطوان، العدد 10، السنة 1965، ص.67.

(105) الإفراني، النزهة، ص.317.

من طرف زيدان لإقناع يحيى بمقاتلة الثائر المتغلب على عرشه. بل إن الأمر لم يقتصر على الاستنهاض المتكرر، وتتابع الرسل، وإنما احتاج من زيدان أن يقدم بنفسه لزيارة الشيخ وإقناعه بهذا الأمر، وقد استغرق ذلك فعلا ما يقرب من سنتين. حيث كان خروج زيدان من مراكش عام 1020 هـ، ولم يتحرك يحيى لنجدته إلا سنة 1022 هـ. فلماذا إذن كل هذا التأخير مع أن الأمر، من وجهة نظر زيدان، واضح ويتطلب رد فعل تلقائي ؟ وهو الرأي الذي عبر عنه حين خاطب يحيى بخصوص هذا الموضوع قائلا: **"ولا تحتاج فيه لإقامة حجة غير كونه خرج عن الجماعة"**، ثم أضاف في مكان آخر من نفس الرسالة: **"وأما أبو محلي، فبمجرد قيامه يجب عليك وعلى غيرك إعانتنا عليه، لأنك في بيعتنا وهي لازمة لك، فالطاعة واجبة عليك"**.[106]

لم يكن الأمر، بالنسبة للشيخ يحيى، بنفس درجة الوضوح، ولا بنفس البساطة اللذان تعامل بهما معه السلطان زيدان. وهذا أمر طبيعي، فزيدان ينافس عن عرش ورثه بعد أن ذاق ما ذاق من الهزائم، والاغتراب، والترحال كما مر. أما يحيى، فكان أمام خيار صعب للغاية: أيحجم عن نصرة "**إمام**" كان يعترف ببيعته، وظل يقنع القبائل التابعة لزاويته بشرعية هذه البيعة، وبضرورة "**تأمير الإمام**" ؟ أم يطاوع زيدان في ما رامه، وألحّ عليه فيه، ويحمل سلاحه في وجه فقيه صوفي مثله، وفي وجه أتباعه من البسطاء، أهل سجلماسة ودرعة، الذين قال فيهم السكتاني : "**...أهل درعة، مع أن جلهم حملة القرآن وعامّتهم بله، وأكثر أهل الجنة البله.**" ؟[107] أيسهل على يحيى أن يدوس على نصيحته لقبائل رأس الوادي من سوس، حين قال لهم: "**تعلقتم بما ليس لكم فيه في الدنيا والآخرة نجاة ولا عذر، ألم يبلغكم قوله صلى الله عليه وسلم : «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»**" ؟[108]

كان يحيى إذن في حاجة إلى ما يكفيه من الوقت ليمعن التفكير، ويستشير غيره من العلماء. وقد ظل طيلة هذه المدة، يكاتب قاضي الجماعة بتارودانت، عيسى السكتاني، مستشيرا في هذا الأمر، بينما ظل هذا الأخير يمانع في إباحة دفاع ابن أبي محلي ويجيب: "**إن هذا لا تستقيم معه الديانة.**"[109] بل إن يحيى لم يتوان في مكاتبة ابن أبي محلي ومناشدته، كما صرّح بذلك من خلال رسالته الشهيرة إلى زيدان.[110]

(106) م .ن، والصفحة نفسها.

(107) عباس ابن إبراهيم، الإعلام، ج·1، ص.242.

(108) رسالة من يحيى إلى بعض قبائل رأس الوادي بسوس، مؤرخة بـ :ذي الحجة عام 1018 هـ، انظر نصها في الملحق آخر هذا الكتاب.

(109) الإفراني، النزهة، ص.332.

(110) م. ن، ص. 313.

إن انتظار الشيخ يحيى مدة تقرب من سنتين قبل خروجه لمقاتلة ابن أبي محلي، ثم لجوءه لاستشارة العلماء والحصول على موافقتهم قبل الإقدام على هذا الأمر، أمران يعكسان جوانب هامة من شخصية هذا الرجل، وحقيقة موقفه. فهو ليس بالمتعصّب لبيعة زيدان إلى درجة تجعله يغضب الله، ويقع في المحظور شرعا (قتال المسلم للمسلم)، كما أنه ليس بالمتهافت على الملك والولاية، حتى يقفز بسرعة على هذه الفرصة السانحة، ويعمل على توسيع نفوذه الزمني والمجالي. ولو كان الأمر كذلك لما انتظر كل هذا الوقت ووراءه من وراءه من القبائل السوسية الشديدة المراس.

إنها إذن شخصية العالم الفقيه الصوفي، الذي يعتبر من آكد واجباته: **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، لكنه يرى ضرورة اتفاق العلماء على تصنيف فعل ما على أنه منكر، قبل الإقدام على تغييره، خاصة إذا كان الأمر يتطلب **"تغييرا باليد"**، وحمل السلاح، وإزهاق الأرواح التي حرّم الله قتلها إلا بالحق. فيحيى لم ينهض، إذن، لقتال ابن أبي محلي إلا بعد أن ثبت في حقه القيام بالمنكر باتفاق عدد من العلماء، على رأسهم قاضي الجماعة عيسى السكتاني الذي قال: **"وما زلت على المنع حتى جاءت كراريس من قبل أبي محلي فتأملتها، فوجدتها مشتملة على كفريّات في جزئيات. فحينئذ شرح الله صدري لإباحة دفاعه."**[111] وهو نفس الموقف الذي عبر عنه يحيى وصارح به زيدان في رسالته المعروفة إليه، وقد بنى هذه الرسالة على أمور ثلاثة، جعل ثانيها كما قال: **"والثاني: الحامل على دفع مناوئكم"**. ثم بيّن، من خلال نفس الرسالة، أسباب قيامه بمدافعة ابن أبي محلي على النحو التالي: **"فلما جرى القدر بتغلب ذلك الإنسان المتسلط على النفس والحريم والأموال، وأدخل بتأويلاته البعيدة عن الصواب ما ليس في المذهب، وتعدى خصوص الولاة إلى سائر الرعية فاضلها ومفضولها، ومدّ مع ذلك يد الوعيد المؤكد بالأيمان إلينا في الأنفس والأموال. فناشدناه، كما تقرر في فتاوي الأئمة رضي الله عنهم، حيث توفرت فيه فصول الصائل كلها بشاهد العيان، فكان الأمر كما قدّر الله تعالى، ولله الأمر من قبل ومن بعد"**.[112]

لا يتعلق الأمر إذن، لا بتعصّب لبيعة أمير، ولا بطمع في ملك أو رياسة. ولكنه قبل كل شيء، قيام بواجب تغيير المنكر الذي ثبت وقوعه على عدة مستويات :

---

(111) م.ن، ص.332.

(112) م.ن، ص. 313، عمدنا هنا إلى تصحيح بعض عبارات هذا النص، لعدم استقامة معانيها مع سياقه، معتمدين في ذلك على نفس نص هذه الرسالة كما ورد عند: الناصري، الإستقصا، ج. 6، ص.37، وكذا عند :عباس ابن إبراهيم، الإعلام، ج.1، ص.224.

- التسلط على الأنفس والحريم والأموال، الذي تعدى الخاصة إلى عموم الرعية.
- البدعة: فابن أبي محلى أدخل بتأويلاته **"ما ليس في المذهب"**، وهو ما ذهب القاضي السكتاني إلى حد وصفه **"بالكفريات"**.
- مدّ يد الوعيد إلى الشيخ يحيى ومن معه، في الأنفس والأموال، مع تأكيد هذا الوعيد بالأيمان.

ولعل هذا الوعيد هو رد فعل على ما كان يقوم به يحيى من تغيير المنكر **"باللسان"**، قبل القيام بتغييره باليد، حيث نظم عددا من القصائد يردّ فيها على ادعاءات ابن أبي محلي وتأويلاته المناقضة لصريح الآيات[113].

بكل هذا توفرت في ابن أبي محلي جميع فصول **"الصّائل"**[*] كما قررتها فتاوي الأئمة، التي شكلت السند الذي اعتمده يحيى للزحف صوب مراكش يوم ثامن رمضان عام (1022 هـ/1613م)[114] في جيش عرمرم من القبائل السوسية قدّره البعض بحوالي ستين ألف جندي (60.000)[115]. ليتمكن من وضع حد لثورة ابن أبي محلي، ويدشن صفحة جديدة من صفحات حياته هو، تميزت بالانتقال من مرحلة العمل على تغيير المنكر بالقلب واللسان (السلوك-النصيحة) انطلاقا من العمل الديني/العلمي/الصوفي الصّرف، إلى مرحلة العمل السياسي/العسكري القائم على مرجعية دينية تتمثل في ضرورة تغيير المنكر باليد .

فما هي العوامل التي ساهمت في هذا الانتقال ؟ وما هي المؤهلات والمرتكزات التي دفعت الشيخ يحيى وسهّلت له عملية الانتقال من تقديم النصيحة، إلى حمل السلاح وإعلان الثورة أولا، ثم تأسيس الإمارة ثانيا ؟

(113) راجع بعض ما نظمه يحيى في هذا الباب، في الصفحة: 34 من هذا الكتاب، ومنه :

يزيدك من تأويله وحديثه بما هو في الآي الصريحة كاذبه.

أنظر كذلك بهذا الصدد: الإفراني، النزهة، ص.322، السوسي، المعسول، ج. 19، ص. 87-88، التامري، المتعة والراحة، ج.1، ص. 124-125.

(*) الصائل : أو الصؤول من الرجال: الذي يضرب الناس ويتطاول عليهم، صال عليه: وثب، أصول: أسطو وأقهر. أنظر: لسان العرب لابن منظور، طبعة مصورة عن طبعة بولاق، ج. 13، ص.411.

(114) الإفراني، النزهة، ص. 306.

(115) S.I.H.M, Angleterre, t : II, p. 66، وكذا محمد بن تاويت، من روايا التاريخ المغربي، البحث العلمي عدد. 10، السنة 1965، ص.67.

الفصل الثاني

مؤهلات وأسس الثورة

1 - المؤهلات المعنوية والمادية للثورة:

1-1 المؤهلات المعنوية : (الإرث العائلي)

ورث الشيخ يحيى الحاحي عن أسرته مجدا تالدا ، فقد تَسلسَل العلم والصّلاح في آل سعيد بن عبد المنعم جيلا بعد جيل، حتى صاروا مضرب الأمثال ومفخرة السوسيين عموما. وفي ذلك قال الشاعر إبراهيم بن علي الروداني[1] يفاخر بأعلام سوس ويرد على من هجا هذه البلاد وأهلها :

ومنه بدور بل شموس قد أزهـــــرت
سعيدان عند السعد بينهما السعد
أبو الفضل يحيى بعد بدرين قد سما
سماء فنون العلم ليس له الجحد[2]

• العلـم:

من المعلوم أن العلم في المجتمعات الإسلامية يعتبر أحد وسائل الارتقاء الاجتماعي بامتياز، ذلك أنه يستتبع الوجاهة والجاه والثروة. وهذه الصفات مجتمعة تسهل انقياد العامة، وتكاثر الأتباع. وقد تنبه ابن خلدون إلى ذلك عندما قال: "**...أنّا نجد كثيرا من الفقهاء وأهل الدين والعبادة إذا اشتهروا حَسُن الظّن بهم ...فأخلص الناس في إعانتهم على أحوال دنياهم والاعتمال في مصالحهم، وأسرعت إليهم الثروة وأصبحوا مياسير من**

(1) هو إبراهيم بن علي بن الحسن الروداني دارا ومنشأ، وأصله من قبيلة إيلالن، فقيه أديب ولغوي، توفي بعد 1118 هـ. وقد نظم هذه القصيدة ردًا على الفقيه عبد المالك التاحموعتي الذي هجا سوس وأهله بقصيدة مطلعها :

فإن تسألوا عن سوس فالكلّ مدعن   يقادون كيف شيت لم تعصب الود.

فأجابه إبراهيم الروداني بهذه القصيدة، ومطلعها :

أيا عجبا ترمي لـدى أمـة سعـد   بأسهـم غرب لا يقام لها حـد.

(2) المختار السوسي، خلال جزولة، ج. 2، ص. 109.

غير مال مقتنى ...وفي البدو يسعى لهم الناس في الفَلَحْ والتَّجْر، وكلّ وهو قاعد بمنزله لا يبرح مكانه، فينمو ماله ويعظم كسبه ويتأثل الغنى من غير سعي."[3]

فالعلماء هم حرّاس الشريعة وورثة الأنبياء، يستمدون قوتهم من دورهم في المحافظة على العقيدة وقدرتهم على الاجتهاد. وهم ملزمون بتقديم الإرشاد وإعطاء المثال للعامة، في حين يمنحهم هؤلاء النفوذ ويمتثلون لإرادتهم. ومن ثم يصبح الأمير مسؤولا أمامهم على تنفيذ أحكام الله، وهو ما يمنحهم إزاءه قوة بذل النصيحة. فقوة العلماء إذن مستمدة من أصول ثلاثة: قوة الشرع، قوة العامة، قوة بذل النصيحة للأمير.[4]

وبما أن قوة أحد هذه الأطراف الثلاثة **(الأمير، العلماء، العامة)** تكون دائما على حساب الطرفين الآخرين، نجد الدولة سعت إلى تهميش العلماء،[5] أو على الأقل إلى استتباعهم وتوظيفهم. في حين أن ضعف الدولة يقوي من مكانة هؤلاء، فتصبح النصيحة سيفا مسلطا على رقاب الأمراء، مع ما قد يقتضيه المقام من إغلاظ القول لهم، بل وتعنيفهم إن اقتضى الأمر. وهو أمر تؤكده رسائل الشيخ يحيى الحاحي للسلطان زيدان، والتي قدّم الإفراني لأحدها بقوله: **"وكان يراسل زيدان وينصحه، وتجير منه من استجار به. وكان زيدان يتحمّل من ذلك أمرا عظيما".**[6] وهذه الوضعية التي لا تتيحها سوى ظروف خاصة، مثل تلك التي عاشها المغرب في مطلع القرن (11 هـ/17م)، من شأنها - ولا شك - أن تزيد في ترجيح كفّة العلماء. وترفع مكانتهم في أعين العامة، وتسهّل انقياد هؤلاء لهم والتفافهم حولهم.

● الصــلاح:

بالإضافة إلى العلم ورث يحيى عن أهله الصّلاح والولاية، فأبوه وجدّه كانا من أشهر صلحاء المغرب بإجماع معاصريهما. وقد رأينا أن نشاط كلّ من زاوية جده سعيد بحاحة، وزاوية أبيه عبد الله بإدا أو زداغ - هذه الأخيرة التي أصبح يحيى شَيخَها -ظل يشكل مصدر قلق دائم للسعديين ومثار شكوكهم. وقد شكلت زاوية زداغة على الخصوص، كما سبقت الإشارة، ملجأ وحرما للقبائل المتضررة من السّعديين، أو المتظلمة من قوّادهم.[7]

---

(3) عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ص. 488، دار الفكر، بيروت، الطبعة: 2، 1988.

(4) عبد المجيد القدوري، ابن أبي محلي الفقيه الثائر، ص. 28.

(5) م.ن، ص :نفسها.

(6) الإفراني، النزهة، ص.311.

(7) راجع بهذا الخصوص، الفصل الثاني من القسم الأول من هذا الكتاب، ص 60 وما بعدها.

وإذا كان الصلحاء يقومون بمجموعة من الأدوار توفر للقبائل مآرب دنيوية مثل التحكيم والوساطة وتسهيل التجارة... فإنهم من الناحية الروحية، يشكلون أداة وصل بين هذه القبائل وبين النسق الديني السائد، ويضمنون اندماجها داخل المجتمع الإسلامي، فَيُمدُّونَها بالاستمرارية والاستقرار[8]. من هنا تتأكد حاجة القبائل الملحة لتواجد الصلحاء في أوساطها، وهذه الحاجة هي التي تمنح الصلحاء سلطة توجيه القبائل، والتي يترتب عنها نوع من التفويض من طرف هذه القبائل للصلحاء لتمثيلها والنطق باسمها. وبمجرد ما يدبّ الضعف إلى السلطة المركزية (المخزن)، فإن نفوذها عادة ما يبدأ في الانحسار أولا عن البوادي النائية والجبال الوعرة، والتي عادة ما تمثل المجال الأمثل لنشاط الصلحاء، فيترتب عن هذه الأوضاع تكريس أدوار الصلحاء وتدعيم مكانتهم، وذلك بتنامي نفوذهم الزمني، إلى جانب سلطتهم الروحية التي كانوا يتمتعون بها من قبل. فهم المؤهلون، قبل غيرهم، لملء الفراغ الذي يتركه انحسار سلطة المخزن. فلا دور أهم من دور رجل الدين في مجتمع يقوم نظامه على الدين،[9] وليس هنالك من ينافس الصالح في هذه الأهلية خصوصا في وسط يعتبر الصلحاء أداته للاندماج في النسق الديني السائد.

وإذا كان العلماء عادة ما يستقرون بالحواضر، ويحضون باحترام أهلها، في حين تشكل البوادي مجالا لنشاط الصلحاء ونفوذهم، فإن الشيخ يحيى جمع بين العلم والصلاح، وبين أدوار علماء المدن، ومختلف أدوار صلحاء البوادي فحظي باحترام الطرفين (أهل الحواضر والبوادي). بل إننا رأينا عددا من أعلام الثقافة والعلم بسوس ينتقلون للأخذ بزاوية زداغة بعد إتمامهم لتحصيل العلم بحاضرة تارودانت. وهي وضيعة ورثها يحيى عن أبيه عبد الله، وجدّه سعيد اللذان رأينا إن زاويتيهما كانتا قبلة ومحجا لأهل الحواضر والبوادي على حد السواء.

إن أخذ كل الأدوار التي كانت تلعبها الزاويا بالمغرب منذ القرن 15 م بعين الاعتبار[10]، يجعلنا نفهم أسباب التفاف القبائل المغربية حول الصلحاء، خاصة في ظروف مثل التي عرفها القرن 17م. كما أن تفحص الرصيد الرمزي الذي ورثه يحيى

(8) ارنست كلنير، السلطة السياسية والوظيفة الدينية، ترجمة: عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، محلة كلية الآداب الرباط، العدد: 11، 1985، ص.183.

(9) عبد اللطيف الشاذلي، الحركة العياشية، ص.73.

(10) راجع تحليلنا لهذه الأدوار في الفصل الأول· من القسم الأول: من هذا الكتاب.

الحاحي عن زاوية جده في حاحة، وزاوية أبيه في زداغة، يجعلنا نَتَبَيَّنُ المكانة التي حضي بها لدى قبائل سوس، والتي كانت إحدى أهم مؤهلات ثورته فيما بعد.

- **النسب الشريف:**

اشتهر آل سعيد بن عبد المنعم، بانتسابهم إلى فرع الشرفاء الأدارسة، وقد رأينا أن نسبهم الشريف هذا كان موضوع طعن من طرف خصومهم السياسيين على الخصوص[11]، كما أشرنا، من خلال نقاشنا لهذه المسألة في فصل سابق، أننا لا نروم إثبات أو نفي هذه النسبة، بقدر ما نسعى إلى تسليط الضوء على أهمية الدور الذي لعبه النسب الشريف في الحقل السياسي خلال هذه المرحلة من تاريخ المغرب.

لاحظ (ارنست كلنير)، من خلال دراسته لصُلحاء الأطلس الكبير الأوسط، أن الصلحاء - إيكرامن في التعبير المحلي - عادة ما يقيمون في موضع ضريح الجد الصالح المؤسس للسلالة، غير أن سلسلة نسبهم لا تنتهي عند هذا الجد، بل تتجاوزه لتصل إلى الرسول[12]. ومن ثم فإن جميع الأولياء أشراف في الاعتقاد المحلّي[13]. ومردُّ ذلك إلى أهمية الدور الذي يضطلع به هؤلاء، باعتبارهم أداة الوصل بين القبائل والنسق الديني السائد[14]. ومن ثم فإن الوراثة تكتسي أهمية خاصة باعتبارها - بعد القرآن والسنة، والإجماع - وسيلة لإضفاء المشروعية السياسية/الدينية، سواء كانت وراثة سلالية (النسب)، أو وراثة روحية **(انتقال السرّ الصوفي)**[15].

لقد أصبحت لعنصر النسب أهمية خاصة بالمغرب- خاصة بعد قيام مؤسسة السلطان الشرفاوي - حيث أصبح السلطان يستمد سلطته من كونه خليفة الرسول، وأحد حفدته في ذات الوقت[16]. وما دام الأمر كذلك، فلا أحد بإمكانه أن يحدّ من هذه السّلطة، أو

(11) سبق أن أشرنا إلى طعن ابن أبي محلي في نسب الشيخ يحيى، حيث اعتبره مجرد ادعاء (راجع الفصل الثاني من القسم الأول، ص: 33 وما بعدها)، وهو نفس ما سيعمد إليه، فيما بعد، أمحاولو الأيسي، شاعر بودميعة - أثناء تهنئة هذا الأخير بفتح تارودانت بعد موت يحيى - حيث نبز في نسب الحاحي بقوله :

ردانة دانت فليطلن شكـــــره أمام البرايا المجتبى وعشائره
ترف إلى كفء وتعرفه، وطـسا لما خطبت نحو الهجين تناكره.

وقد علق المختار السوسي على كلمة "الهجين" بقوله: "يعني يحيا". أنظر: إليغ قديما وحديثا، ص.83.

(12) ارنست كلنير، السلطة السياسية والوظيفة الدينية، م .س، ص.179.

(13) ارنست كلنير، نفس المرجع، ص.182.

(14) المرجع نفسه، ص.183.

(15) نفسه، ص.174.

(16) عبد اللطيف الشادلي، الحركة العياشية، ص.73.

يقلل من شرعيتها غير رجل الدين، وبصفة خاصة إذا كان بدوره من حفدة الرسول (شريف النسب).

وما دامت العلاقات بين القبائل، والجبلية منها على الخصوص، وبين المخزن السعدي ظلت متوترة لأسباب عديدة كما أسلفنا، فإن إضفاء النسب الشريف على صلحائها من شأنه أن يوفر لها نوعا من الحماية، ويخفّف عنها من الضغط المخزني. ولا يهم في هذا الباب مدى صحة هذا النسب، ما دامت الأنساب قد تعرضت للاختلاط بشكل عام، وفي ذلك يقول ابن خلدون: **"ما زالت الأنساب تسقط من شعب إلى شعب، ويلتحم قوم بآخرين في الجاهلية والإسلام والعرب والعجم"**[17]. ورغم أن ابن خلدون لم ينتقد بوضوح أسس ظاهرة الأنساب **"لأن الناس مصدقون في أنسابهم"**، فإنه أعطاها وظيفة مجتمعية وسياسية اعتبرها مبررها الوحيد. فالنسب عنده - سواء كان حقيقيا أو مصطنعا -مؤسسة اصطلاحية تفقد معناها إذا انتفت أهدافها المقررة (مجتمعية - سياسية)[18]. فليست الأهمية إذن لصحة النسب، وإنما لأثره في الحقل السياسي/الديني كأداة لإضفاء المشروعية. ولاشك فالشيخ يحيى الحاحي ورث عن أهله رصيدا هاماً من عوامل هذه المشروعية ووسائلها: علماً وصلاحاً ونسباً.

2-1 المؤهلات المادية للثورة:

شهد جنوب المغرب، عقب انحلال السلطة السعدية (ق11هـ/17م)، نشوء كيانات سياسية استقلت بحكم عدة أجزاء من منطقة سوس، وقد كان وراء إقامتها، في الغالب، ورثة كبار صلحاء القرن (10 هـ/16م) كالشيخ أحمد بن موسى السملالي، والشيخ سعيد بن عبد المنعم الحاحي. ولم يكن بإمكان هذه الكيانات أن توطد سلطتها إلا انطلاقا من مراكمة قاعدة مادية، انطلقت نواتها الأولى من تركيز الأراضي والمياه في أيدي ورثة هؤلاء الصلحاء. ويعود مصدر هذا التركيز بالأساس إلى الهبات السخية التي كانت زواياهم تتلقاها[19]. ولم تكن هذه الهبات مصدر ثروة وغنى هؤلاء فحسب، بل كانت أيضا، وبطريقة غير مباشرة، مصدرا **"للبركة"** التي تمتع بها الصلحاء في الاعتقاد

(17) ابن خلدون، المقدمة، ص.163.

(18) علي صدقي، النسب و التاريخ وابن خلدون، مجلة كلية الآداب الرباط، العدد11، 1985، ص.47.

(19) Pascon (Paul), La maison d'Iligh, p .44-46. : وقد لاحظ بول باسكون قيام علاقة جدلية بين الثروة والسلطة في حالة هذه الزوايا، حيث لا يتمكن ورثة الصلحاء من الاغتناء إلا عن طريق تأسيس إمارة، كما لا يمكنهم تقوية سلطة هذه الإمارة إلا بواسطة مراكمة قاعدة مادية (ثروة).

المحلي. حيث كانت **"البركة"** تتجلى، في الغالب، من خلال صفات يتميز بها هؤلاء أهمها: السخاء، كرم الضيافة، والسعة،[20] ويعتبرها الاعتقاد السائد تخصيصا ربانيا، في حين أن القبائل هي التي تحسم هذه المسألة في الواقع. فعندما تجل شخصا وتعامله كولي، فإنها تدر عليه العطاء، فيسهل عليه التحلي بالصفات المذكورة سابقا، والتي تعتبر بعد حين علامات للاصطفاء الرباني.[21]

يتضح إذن، أن الثروة المادية شكلت قاعدة أساسية -إضافة إلى عوامل أخرى بالطبع- لتوسع النفوذ الروحي للصلحاء (البركة)، وكذا لتقوية نفوذهم الزمني **(الثروة/الإمارة)**. من هنا يحق لنا أن نطرح تساؤلات عن المؤهلات المادية التي شكلت قاعدة ارتكزت إليها ثورة الشيخ يحيى الحاحي، ما طبيعة هذه الثروة المادية؟ وما هي أهم مصادرها؟

تعوزنا الوثائق المتعلقة بأملاك زاوية إداوزداغ، حيث لم نتمكن من الوقوف على مصادر هامة في هذا الباب. ويرجع السبب في ذلك إلى عوامل عديدة، منها ما سبقت الإشارة إليه عند الحديث عن أسباب ضياع مؤلفات الحاحيين، وخزانة زاويتهم، وقد تكون الوثائق التي نبحث عنها (كنانيش، سجلات الأملاك)، قد ضاع بعضها فيما ضاع، بسبب الظروف والصراعات التي عاشتها الزاوية وأهلها كما أسلفنا القول. في حين تعذر علينا الإطلاع على ما قد يكون تبقى منها (بيوعات، عقود شراء، رسوم الملكية)، نظرا للحساسية التي يثيرها الإطلاع على مثل هذه الوثائق عند المعنيين بالأمر، مما يدفعهم إلى الامتناع عن الإدلاء بها، أو حتى مجرد الاعتراف بوجودها.

إن أهم ما يستفاد من إشارات المؤرخين أن الزاوية، منذ عهد الشيخ عبد الله بن سعيد، امتلكت مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية، وكانت القبائل التابعة للشيخ تتطوع لخدمتها في مواسم الحرث والحصاد[22]. و تستفاد كثرة هذه الأملاك من كثرة المتطوعين لخدمتها، حيث ذكر الإفراني أنهم كانوا يردون في **"طوائف"**، ونظرا لكثرتهم فإن الشيخ كان يعين لهم من يؤمهم، **"فيصلون جماعة في موضع الأزواج"**[23].

(20) كلنير (ارنست)، السلطة السياسية .. ، سبق ذكره، ص.183. كما أن إلقاء نظرة سريعة على ما أورده ابن عسكر عن الصلحاء الذين ترجم لهم يؤكد هذا الطرح، حيث غالبا ما يستدل بما يقدمونه من أنواع المأكولات. وكمثال على ذلك ما أورده في ترجمة كل من عبد الكريم الفلاح، أبو عمر القسطلي، عبد الله الكوش، ومحمد بن وسيعدن ...وغيرهم راجع، دوحة الناشر، صفحات: 100، 108، 110، 113.

(21) كلنير ارنست، م.س، ص.181.

(22) الإفراني، صفوه من انتشر، ورقة: 13.

(23) م .ن، والورقة نفسها.

انتشرت أملاك زاوية إداوزداغ في كل أرجاء سوس، من قبيلة مسكينة بالقرب من مدينة أكادير الحالية، إلى حدود الرحالة بأعلى رأس الوادي من سوس[24]. بل إن هذه الأملاك لم يقتصر انتشارها على جنوب سلسلة الأطلس الكبير، بل تعداه إلى شمال هذه السلسلة، حيث لا تزال للزاوية أملاك بقبيلة متوكة حتى يومنا هذا، وتمتد حدود هذه الأملاك حتى شرق أسيف المال[25]. وقد لاحظ (روبير مونطاني)أن أبناء الشيخ سعيد بن عبد المنعم يستقرون في أجود الأراضي المسقية في البلاد بشكل ملفت للنظر، حتى أن جدهم المذكور أحرز في أخباره، شهرة مفادها أنه كان في الماضي مكتشفا كبيرا للمنابع المائية[26]. كانت إذن ملكية الزاوية للأراضي السهلية الجيدة مقترنة كذلك بملكية مصادر المياه، وقد وقفنا على إحدى الفتاوى التي تفيد أن الشيخ عبد الله بن سعيد كان يملك بمفرده نصف ساقية جيرانه بأيت تامنت بزداغة[27].

إضافة إلى الأراضي الزراعية، امتلكت الزاوية قطعانا من الماشية، كان رعاة من المريدين يتطوعون لرعيها[28]. وكان إنتاج تلك الأراضي وهذه القطعان يوفر للزاوية ما يكفل لها القيام بإيواء وإطعام كل وفود الزوار والمريدين التي تقاطرت عليها من مختلف الأفاق[29]. وقد خلد لنا القاضي عيسى بن عبد الرحمن السكتاني وصفا شاملا للأدوار التي اضطلعت بها الزاوية في هذا الباب على عهد الشيخ يحيى جاء فيه: **وقد أتته (الشيخ يحيى) من أقطار مغربنا الوفود... وكان يعلم الجاهل ويهدي الضال ويطعم الجائع ويكسي العريان ويعين ذا الحاجة ويغيث اللّهفان...**"[30].

كانت الهبة والوقف تشكلان أهم مصادر أملاك زاوية زداغة، وكان منطلق ذلك منذ أن حل الشيخ عبد الله بن سعيد على (أيت تامنت)، حيت كان يتعبد تحت سدرة هنالك، ولما شاع خبره أتاه أهل البلد فوهبوا له المكان وبنوا له به عريشا، وهو المحل الذي بنى به زاويته فيما بعد، وتقاطرت عليه فيه وفود الزائرين وذوي الحاجات.[31] ويتوسع النفوذ

(24) استفدنا هذه المعلومات من أحد أفراد الأسرة المنانية الحاحية بتارودانت، وهو الحاج حماد المناني، كما أفادنا بقائمة بأسماء الجماعات أو القبائل التي تتواجد بها أملاك الزاوية وأهمها: مسكينة، التمسية، هوارة، مشرع العين، أيت ايكاس، أولاد برحيل، تالكجونت، أولوز، متوكة، إضافة إلى أملاك إداوزداغ.

(25) Montagne (Robert), Les Berbères et le Makhzen, p. 113.

(26) Ibid, p.113.

(27) عيسى بن عبد الرحمن السكتاني، الفتاوى، م. س، ج. 2، ص.378.

(28) الإفراني، صفوة من انتشر، ورقة : 13.

(29) م .ن، ورقة: 13.

(30) الإفراني، النزهة، ص.331.

(31) التمنارتي، الفوائد الجمة، ورقة: 194-195.

الروحي للزاوية توسعت أملاكها كذلك، حيث تنافست القبائل التابعة لها في التنازل لها عن أجود الأراضي المسقية، وهو ما يؤكده انتشار هذه الأملاك داخل مجالات القبائل التي تأكدت تبعيتها لزاوية زداغة من **مسكينة**[32] إلى الرحالة بأعلى رأس الوادي مرورا بقبائل سهل سوس مثل **هوارة والمنابهة وأولاد يحيى**... ولا نستبعد أن يكون توسع هذه الأملاك قد بلغ مداه بعد ثورة الشيخ يحيى الحاحي وتأسيسه لإمارة تارودانت، حيث تعودنا أن نرى أملاك الزاويا تتضاعف مساحاتها إذا ما نجحت في تأسيس إمارة، وهو ما أثبته (بول باسكون) بالنسبة لإمارة إليغ السملالية[33].

شكلت الصدقات والأعشار بدورها مصدرا هاما لثروة الزاوية، حيث تعودنا أن نرى "عشاق البركات" يغدقون على الصلحاء من الصدقات والأعشار والأوقاف ما يشكل قاعدة لقوتهم الاقتصادية[34]. وقد استمر ورود الصدقات على زاوية زداغة خلال عهد الشيخ عبد الله وابنه يحيى وكذا بعدهما، حيث عثرنا على ما يؤكد ذلك من خلال إحدى الفتاوي التي وجهت للقاضي السكتاني، وتفيد بأن إحدى الوريثات تصدقت بنصيبها مما تصدق به على هذه الزاوية، أو ما عسى أن يتصدق به عليها[35].

لقد ساهم ذلك التحول الجذري الذي عرفته علاقات زاوية زداغة بالمخزن السعدي، خلال عهد الشيخ يحيى الحاحي، في تدعيم قاعدتها المادية، حيث باتت تتلقى هبات سخية من طرف السلطان زيدان بن المنصور، اعترافا بالدور الذي كان يلعبه شيخها يحيى في أوساط القبائل السوسية، فقد أسلفنا أن الشيخ يحيى كان الضامن الوحيد لاستمرار اعتراف هذه القبائل" بشرعية "حكم هذا السلطان، دون أن نغفل دور الشيخ يحيى في القضاء على ثورة ابن أبي محلي، وإرجاع زيدان إلى عرشه. وكان اعتراف هذا الأخير بهذه المواقف والأدوار، يجعله يغدق بسخاء على الزاوية وشيخها، ويوفر له كل حاجياتها من أموال وسلع... وقد ورد في إحدى رسائل زيدان إلى الشيخ يحيى الحاحي ما يؤكد ذلك بما لا يدع مجالا للشك، حيث خاطبه قائلا: **"أما الأموال، فإن الله سبحانه قد وسع علينا من فضله.. واعلم أن الظن فيك جميل، ولولا ذلك ما أعطيتك خمسة آلاف**

(32) سبق أن رأينا قبائل مسكينة تشكو للشيخ عبد الله بن سعيد تصرفات قائد المنصور عبد الرحمن بن المريد الشياظمي، ثم تنفذ حكم الشيخ فيه، وهو ما يؤكد تبعيتها لزاوية زداغة .وعند استعراض أملاك هذه الزاوية بسوس، نجدها تبتدئ، في أسفل سوس، انطلاقا من مجال قبائل مسكينة.

(33) Pascon (Paul) La Maison d'Iligh, p. 46.

(34) أفا عمر، مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، مطبعة النجاح الجديدة، ط. 1، 1988، ص.105.

(35) عيسى السكتاني، الفتاوي، ج. 2، ص.362.

مثقال، وسمحت بالمال الذي حمل إليكم ابن عبد الواسع أخيرا، ولا بسلعة السفن . وبهذا كله تستدل على صفاء النية وصلاح السريرة".[36]

توفرت للشيخ يحيى إذن، من هذه المصادر المتنوعة، مداخيل وفيرة شكلت قاعدة مادية دعمت نفوذه الروحي الواسع في أوساط قبائل سوس، ومكنته من تجهيز أتباعه وتسليحهم، ومن دخول معترك الصراع السياسي والعسكري، ضد السملاليين جنوبا، وكذا ضد زيدان بن المنصور نفسه شمالا. محاولا تجسيد تصوراته النظرية عما ينبغي أن يكون عليه حال الأمة وحكامها، من خلال محاولة تأسيس حكم بديل لما هو سائد.

فما هي المنطلقات النظرية التي أسست لثورة الشيخ يحيى ووجهتها نحو تأسيس إمارة تارودانت ؟ وما هو التصور النظري البديل الذي طرحه الشيخ يحيى، وحاول تجسيده من خلال هذه التجربة ؟

2 - الأسس النظرية للثورة:

خلصنا من قبل إلى أن الشيخ يحيى الحاحي لم يقتحم ميدان السياسة اختيارا، بل تم هذا الأمر تحت إلحاح السلطان زيدان، وبعد طول تفكير واستشارة للعلماء، إلى أن أصبح الشيخ يحيى مقتنعا بوجوب تدخله لتغيير المنكر نظرا لعجز السلطان الشرعي عن القيام بذلك. ومن ثم اعتبر هذا التدخل في مجال السياسة ضرورة دينية يلزمه بها الشرع. ومن هذا المنطلق **(الواجب الشرعي/ضرورة تغيير المنكر)** حدد يحيى الحاحي (الفقيه المحدث، والشيخ المتبوع) الأسس النظرية التي شكلت مرتكزات أساسية لثورته في ثلاثة محاور: **الإصلاح الديني/الأخلاقي، الإصلاح السياسي، الجهاد ضد الأجنبي.** وهي القضايا التي أرقت بال الشيخ يحيى - على ما يبدو - مما جعله يكرس لمناقشتها كل ما وصلنا من إنتاجاته الشعرية المتميزة، وحيزا هاما من مراسلاته سواء منها تلك الموجهة للسلطان زيدان، أو للقبائل التي كان له عليها نفوذ روحي حتى قبل تأسيس سلطته الزمنية.

2-1 الإصلاح الديني و الأخلاقي:

إن مكانة الشيخ يحيى العلمية، وموقعه داخل هرم التصوف المغربي، وطبيعة ثقافته وتكوينه: كفقيه عالم، وكشيخ صوفي متبوع، تجعل تقييمه لواقع الأمة وحكمه عليه

(36) الإفراني، نزهة الحادي، ص. 327-328.

ينطلق أساسا من منظور ديني، ويعتمد حدود الشريعة كمعيار حاسم لتقييم مدى مطابقة هذا الواقع أو عدم مطابقته لمقاصد الشريعة.

وبطبيعة الحال، لم يكن الشيخ يحيى الوحيد من علماء ومتصوفة المرحلة الذين لاحظوا مدى ابتعاد الأمة، حكاما ورعية، عن تلك الحدود والمقاصد،[37] لكنه كان من ضمن أولئك القلائل الذين توفرت لديهم الجرأة الكافية للتعبير عن آرائهم ومواقفهم. فكان يرى أن أسباب ما حل بالمغرب من سوء الأحوال، وتتابع الأهوال، وافتراق الكلمة ليس سوى سخطا إلهيا عقابا على فساد أديان العامة، وسوء أخلاق الحكام، وصمت العلماء، وهو جوهر ما عبرت عنه قصائد الشيخ يحيى ومن ضمنها الأبيات التالية وهي من قصيدة يعرض فيها بابن أبي محلي:

يا أمة المصطفى الهادي أليس لكم   فيما مضى أسوة من سائر العلما ؟
نسيتم دين خير الخلق وافترقت   آراؤكم فغدا الإسلام منقسما
أتحسبون بأن الله تارككم   سدى وقد خلقكم تعلمون لما
ناشدتكم بالذي في العرض يجمعنا   أما فطنتم وما لاه كمن علما
بأن مغربكم قد عمه سخط   من المهيمن يا لله معتصما

وقال في قصيدة أخرى:

تبدد شرع المسلمين كأنه   مفاصل شلو مزعته نواشبه
غدا قددا بعد أن كان شاخصا   وحيدا تذود العابثين قواضبه
فلا عالم يرثى لحالته متى   تأتى له ما تحتويه رواجبه
يؤول آيا نيرات صريحة   إلى ما ترى فيها مناه الكواذبه
وما قصده إلا التهام لقيمة   ونيل رضا فدم جهول يصاقبه
يجول أمير جولة الغشم ثم لا   يرى العلماء إن ذلك عائبه
فلا آية يتلون حق تلاوة   تراءى بها من الكتاب عجائبه
و لا سنة مالت إليها عيونهم   ليظهر منها للذي مال عائبه

إنها أبيات تعكس مدى الحسرة التي شعر بها فقيه عالم تجاه ما آلت إليه أوضاع الإسلام والمسلمين، بسبب جهل الحكّام، وانشغال العلماء وصمتهم، إما طمعا أو تواطؤا أو خوفا.

(37) رصد الدكتور محمد حجي في باب "مسائل فكرية مهمة شغلت المثقفين في عهد السعديين" مواقف علماء ومتصوفة تفجعوا على أحوال الأمة وعلى مدى ابتعادها عما هو مطلوب شرعا في قضايا متعددة. محمد حجي، الحركة الفكرية ص. 197 وما بعدها.

لكن يبدو أن الشيخ يحيى لم يكن مستعدا للانضمام إلى صف الصامتين، وهو ما تعبر عنه بصريح العبارة أبيات هذه الرائية البديعة:[38]

ونصحـــا أراه من معالـــم ديننـــا
وفي علمكم ما الشّرع في النصح قررا
وإنشادكم يا أمة المصطفى الرضـــى
قـــوام عمود ديننـــا ألَذْ تفطـــرا
وتحذيركم قهـــر الإلـــه وعدلـــه
وبعث جـــزاء من عتـــا وتجبـــرا
ألم تبصروا ما حل بالنـــاس عندمـا
تشاغلتم عن نهي ما الشرع أنكـــرا
ولم تأمروا بالعرف عزمـــا، وشرطـه
لديكم - إذا أنصفتم- قد توفّـــرا
تعاميتـــم عما جـــرى وعميتـــم
فلـــم تنظروا أمـر الرعيـــة منظـــرا
ولـم تيأسوا يوما بمـــــا ساء أمة
الرسول، فليس للدّين رسم لمـــا أرى
فليس من أهل الدين مـــن لـم تهمـه
أمور عبـــاد الله، في الكتب سطّـــرا

○●○

إلى كـــم أناديكـــم، ولمّا أجدكـم
كأنـي أنـــادي أو اكلـم أقبـــرا
وأندب أطلالا عفت و معالمـــــا
بها الدّين أضحى في اغتراب معفـرا

○●○

(38) ذكر صاحب المتعة والراحة أنه عثر على هذه القصيدة بخزانة شيبوب الروداني، وقد سلّمَنا الأستاذ أحمد بزيد نسخة مخطوطة منها، كما ذكر أنه هو الذي عثر عليها في خزانة آل شيبوب .

وجرعت من تكتيمكم غصصا لهـــا
حشـــاي يذوب غمـــــة وتحسـرا
عفا الله عنكم لا أزال مواليـــــا
لنصحكم، ما دمت فيكـــم مذكـرا
وحسبي الذي أرجوه يهـــدي جميعنا
وينصر هـــذا الدين نصرا مـــؤزّرا

توجه أبيات القصيدة عتابا واضحا وصريحا للعلماء الذين فضلوا الصمت، ولم يقوموا بدورهم في النهي عن المنكرات من خلال تقديم النصيحة للرعية، وللحكام أيضا. فالشيخ يحيى يعتبر النصيحة سلاحا في يد العلماء يتوجب عليهم استعماله في وجه المخالفين لحدود الشرع عندما يقتضي الأمر ذلك، ومهما كانت مكانة هؤلاء. ومن هذا المنطلق كانت مراسلاته الشهيرة مع السلطان زيدان، فقد ورد في مقدمة إحدى هذه المراسلات، أثناء توضيح دوافع الكتابة ما يلي: "**...ملازمة نصحكم وتذكرتكم، والضجر مما يصدر منكم ومن أعوانكم (...) ومنها النصح لعامة المسلمين ...وقد بذلنا الجهد في الجميع، أخلص الله القصد في الجميع** "[39]. من هنا كانت أخلاق السلطان زيدان وحاشيته من الوزراء والقواد هدفا لانتقادات الشيخ، وهو ما يبدو أنه لم يكن يروق للسلطان، مما جعله يفرد صدر رسالته الجوابية إلى الشيخ، لتقديم عرض غريب عن فساد أخلاق أسلافه(عبد الملك المعتصم، وعبد الله الغالب)! كما قدم أمثلة عن فساد وزراء الدولة وقوادها الذين "**انغمسوا في شرب الخمور واتخاذ القيان، وبسط الحرير...**"![40] ليخلص إلى أن كل هؤلاء لم يتعرض لهم أي من كبار العلماء والصوفية الذين عاصروهم، ولا تعرضوا للسلطنة![41]

إن رفض هذا المنطلق، ورفض "مؤامرة الصمت" هذه - إن صح التعبير- قد يكون سببا رئيسيا في انتقال الشيخ يحيى من ممارسة **النصيحة**، التي تدخل في باب تغيير المنكر باللسان، إلى **الثورة** التي تمثل ثالثة درجات تغيير المنكر: التغيير باليد. وبطبيعة الحال فإن هذا التغيير لا يخرج عن سياق المنطلق: **الإصلاح والتجديد الديني**، وهو أمر لا يمكن أن يقوم به إلا من توفرت فيه الشروط التي تؤهله لذلك كالعلم، والصلاح،

(39) الإفراني، النزهة، ص.312.
(40) نفس المصدر، ص. 318.
(41) م. نفسه.

والقدرة (الثروة، كثرة الأتباع) وعموما فهي صفات كان الاعتقاد السائد يعتبرها تدل على نوع من الاصطفاء الإلهي،[42] وهو أمر لم يسلم من الاعتقاد فيه الشيخ يحيى نفسه حيث نظم يقول :

وما زلت لم أيأس عسى الله بعد ذا
لك العسر؟ جل الله - يحدث أيسرا
فقد جاء أن الدين بعد اغترابه
لدى كل قرن ليس زورا، ولا افترا
يجدده المولى على يد من يرى
لذلك أهلا، سنّة الله في الورى
ومن ذا لسنة الإله مبدّلٌ
يحوّل أمرا قد قضاه وقدرا.

2-2 الإصلاح السياسي:

كان صراع أبناء السلطان أحمد المنصور على العرش سببا مباشرا في تدهور الأوضاع السياسية والأمنية بالبلاد، فتزايد نفوذ الوزراء والقواد، وكثر أدعياء العرش من الثوار والمتمردين، وتفاقمت حاجة الأمراء إلى الأموال لتجهيز الجيوش، قصد إخماد الثورات وردع مختلف حركات العصيان. وقد استدعى هذا الأمر نهج سياسة جبائية تميزت بكثير من الإجحاف، عانت من وطأتها فئات المجتمع الدنيا، وتمردت ضدها القبائل في جهات البلاد المختلفة.

جعل اضطراب أوضاع البلاد العلماء والصلحاء أمام اختيارين: إما المشاركة في النشاط السياسي كضرورة يقتضيها لزوم تغيير المنكر، أو الامتناع عن المشاركة تلافيا للوقوع في آفات الخروج عن طاعة الإمام[43]. وكان دافع المشاركين اقتناعهم بضرورة القيام بعمل ما لتصحيح الأوضاع ما دام غيرهم لا يستطيع القيام به، وكذا إحساسهم بأن أعمالهم كانت مساندة من طرف الرعية بشكل يعطي موقفهم الصبغة الشرعية[44].

(42) كلنير إرنست، مرجع سابق، ص. 181.
(43) عبد اللطيف الشاذلي، الحركة العياشية، ص. 69.
(44) نفسه، ص.70.

وقد سعى الشيخ يحيى إلى الجمع بين الأمرين، فحاول- دون الخروج عن طاعة وبيعة السلطان زيدان- أن يسهم في إصلاح الأوضاع العامة بالبلاد، ولهذا الغرض قضى على حركة ابن أبي محلي وأرجع السلطان إلى عرشه. وكان هذا العمل مشروطا بالتزام زيدان للشيخ بتطبيق إصلاح سياسي يقضي بمراجعة نظام الجبايات، وإشاعة العدل، والتخلي عن الرذائل، وإبعاد اليهود عن شغل المناصب الهامة في البلاط[45]. لكن يبدو أن الالتزام بهذه الشروط كان مجرد تكتيك سياسي لجأ إليه السلطان لاستعادة عرشه، حيث أن الأوضاع لم تشهد أي تغيير يذكر، وهو ما جعل الفئات المتضررة تتجه بشكاياتها إلى الشيخ باعتباره مسئولا عن إعادة زيدان إلى السلطة. ويبدو أن نقض العهد من طرف السلطان كان دافعا كافيا للقيام بعمل لتصحيح الوضع، لكن الشيخ يحيى، على عادته، آثر التريث ومكاتبة السلطان بالأمر أولا، ومما جاء في إحدى رسائله إليه: "**وكنت أتخوف من هذا الواقع بأزمور وآسفي ومراكش و الغرب، ولذلك ألححت عليكم في تقرير العهد حتى أتاني القائد عبد الصادق بمصحف، ذكر أنه لسلطان تلمسان، في جرم صغير، وقال لي: أمرني السلطان أن أحلف لك فيه، نيابة عنه، على بقائه على العهد فيما بينك وبينه من تأمين من أمنته، وإمضاء كل ما رأيته صلاحا لأمته، صلى الله عليه وسلم. ثم لم أكتف حتى أتى القاضي وكتبت لي أن كل ما رأيت فيه الصلاح أمضيته، وأنك أمنت كل من أمنته .ثم بعد استقرارك في دارك، كتبت لي كتابا بأنك باق على ما تعاهدنا عليه معك، وأن الأمور كلها على معيار الشرع.**

فما راعني إلا وقد أخفرت في ذمة الله وأماني الذي عقدته للناس، فمن مأسور ومقيد ومطلوب بمال ومطرود عن بلد[46]".

لقد كان الشيخ صريحا مع السلطان في تبيان دوافع مكاتبته، حيث أورد في مستهل نفس الرسالة: "**ملازمة نصحكم وتذكيركم والضجر مما يصدر منكم ومن أعوانكم للرعية**". إنه تنبيه صريح للسلطان بضرورة تغيير سياسته مع الرعية، وبضرورة كف أيدي أعوانه عن الناس. ويبدو أن عدم استجابة زيدان لهذا الأمر، جعل الشيخ يحس بمسؤوليته تجاه الرعية، ومن تم بضرورة القيام بواجبه في تغيير المنكر وإصلاح الأوضاع، وهو أمر لم يكن ممكنا إلاّ بنقض بيعة زيدان وإعلان الثورة عليه.

(45) Robert Ricard, Mazagan et le Maroc sous le règne du Sultan Moulay Zidan (1608-1627), Paris, Geuthner, 1956, p 40.

وقد ضمنت هذه الشروط في مراسلات الشيخ يحيى الحاحي وزيدان، انظر الإفراني، النزهة، ص.314

(46) الإفراني، النزهة، ص.314.

2-3 الجهاد ضد الأجنبي:

شَكَّلَ الجهاد قضية هامة شغلت بال المفكرين منذ بداية العصر السعدي، فكتب عنها الفقهاء والمحدثون، وأسالت أقلام الكتاب والأدباء[47]. وقد عادت للظهور من جديد مع أواخر دولة السعديين نظرا لتنامي خطر الغزو المسيحي للسواحل المغربية، وبصفة خاصة بعد تسليم المأمون مدينة العرائش للإسبان، حيث خَلَّف هذا الحادث أثرا عميقا في نفوس الشعب والمثقفين بشكل خاص، وأدى إلى اندلاع ثورتين ضد السعديين[48].

كان الشيخ يحيى- انطلاقا من زاويته بإدا أو زداغ بأعلى جبل درن - يتابع عن كتب ما يجري بالسواحل من تطورات، ويترقب رد فعل السلطان الشرعي. لكن يبدو أن هذا الترقب طال كثيرا، مما اضطر الشيخ إلى مكاتبة السلطان زيدان مستفسرا ومنَبِّها، ومما جاء في رسالته هذه: "**وأخبار ترد علينا من جهة السواحل، أن الناس تباع فيها للعدو الكافر دمره الله. ولم نر من اهتبل بذلك ممن قلدتموه أمور الثغور. فلم ندر هل بلغك خبر ذلك فتسقط عنا ملامة الشرع، أم لم يبلغك، فأعلمنا لله تعالى لتطمئن قلوبنا، فإني أكاتبك في ذلك، فلم أر جوابا فقضيت والله من الأمر عجبا**"[49]. وبالرَّغم من تعدد الرسائل وطول الانتظار فإن جواب السلطان للشيخ لم يحمل جديدا يذكر. فرغم أنه تطرق للإجابة على كل القضايا التي أثارها الشيخ يحيى، وأفاض في الرد على كل التلميحات والاتهامات المبطنة التي وُجِّهَت لزيدان، فإنه لم يعر الاهتمام الكافي لقضية الجهاد واكتفى بالقول: "**وأمَّا مسألة أهل أزمور، لمَّا جاء كتابكم، عزلنا صاحبه وسرحنا من كان عنده ورددنا الخيل. وقضية الحنَّاشَة الناس في شأنهم بالاجتهاد**"[50]. إن ركون السلطان إلى الاختباء وراء اختلاف الناس في شأن قضية الحنَّاشَة، يعكس عجزا واضحا عن الحسم في قضايا خطيرة من هذا الحجم، وبالتالي عجزا تاما عن اتخاذ أية مبادرة في ميدان الجهاد.

ما من شك في أن موقفا مثل هذا يجعل على عاتق يحيى الحاحي - بصفته فقيها عالما وشيخا صوفيا متبوعا - أن يتحمل مهام جديدة هي أصلا من صميم اختصاصات السلطان، ونعني بذلك مهام الجهاد. وهكذا فمنذ أن أيقن الشيخ أن ولي الأمر عاجز عن القيام بأمر الجهاد، جند نفسه لهذا الأمر، وما فتئ يدعو الناس للانضمام إليه لنصرة دين الله وجهاد أعدائه، ومِمَّا وصلنا من شعره في هذا الباب:

(47) محمد حجي، الحركة الفكرية، ج 1، ص. 197 وما بعدها.

(48) المرجع نفسه، ص. 206-207.

(49) راجع رسالة الشيخ يحيى إلى زيدان عند الإفراني، النزهة، ص.314.

(50) راجع جواب زيدان في المصدر نفسه، ص. 321/320.

هنيئا لكم إن حزتمـــــوه مزيـــة
وفزتم بهـــا بشـــرى هنيئا ومفخـــرا
فقوموا خفافا أو ثقـــــالا، فإنه
دعا الوقت جهرا منذرا و مبشـرا
ووافـــاكم بالسّعد للرُّشد طالـــع
توافق فيه مشتريه ومـــا اشترى
هلمّـــوا إلينا، بادروا، وتسارعـــوا
لنغنم من رضوان ذي الفضل مظهــرا
ويظهـــر دين الله جــــل بأمـــره
ولـــو كـــره الذي طغى وتكبــرا

○●○

ألا فافهموا المقصود ســرا وجهـــرة
وعزمـــا، ولا تبغـــوا له متغيرا
وذلك دين الله أرجـــوه مخلـــا
بقولـــي وفعلي أن يعز وينصـــرا
كذاك جهاد الكافريـــن وغزوهـــم
وإخراجهم من غربنا كي يطهـــرا
وما إن لنا في غيـــر ذلك مطلـــب
وإن تجحدوا قصدي فربي لـــه يرى
أجاهكم أبغي، وقـــدري فوقـــه
أم المال؟ مالي منه قـــد كان أكثرا
أم القتل دون الحـــق نفســـي تشتهـ
ـه كلاّ، وقلبي بالشريعة نـــورا.

ويبدو من سياق القصيدة أن هنالك من كان يشكك في نوايا الشيخ من وراء هذه الدعوة، وفي دوافعه من وراء استجاشة القبائل السوسية. ولا نستبعد أن يكون زيدان وراء هذا العمل، كما كان قد شكك من قبل في نوايا الشيخ عندما دخل مراكش إثر القضاء على ابن أبي محلي. ولهذا السبب ركز يحيى على توضيح مقاصده وأهدافه، والسمو بها عن أي طمع في الجاه أو المال مما لا يليق بمن هو في مثل مكانتة.

على سبيل الختم

إن هول الإحساس بتعاظم الفراغ السياسي الذي خلفه ضعف أواخر أمراء السعديين، والشعور بتفاقم ابتعاد المجتمع عن جوهر العقيدة وحدود الشريعة الإسلامية، من جهة، والإقتناع بضرورة التدخل للعمل على رد الأمور إلى نصابها من باب المسؤولية الشرعية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من جهة ثانية، وبضرورة التصدي للغزاة المسيحيين المتكالبين على ثغور البلاد، كانت - في نظرنا - هي الدوافع الحقيقية وراء نقض الشيخ يحيى، لبيعة زيدان وإعلان الثورة عليه.

وقد عمل الشيخ على محاولة الانتقال بهذه الأفكار والمواقف، التي شكلت الإطار النظري لتحركاته ومبادراته، إلى تجربة واقعية، سعى من خلالها إلى ترميم كيان متهالك نالت منه سنين الصراع على السلطة بين أبناء المنصور ومنافسيهم، وفككت أوصاله النزاعات والمقاتلات والمطامع القبلية، وأنهكت قواه آثار الطاعون الجارف، واستنزفته الغارات الإيبيرية على ثغوره. فأسس الشيخ لهذا الغرض كيانا سياسيا اتخذ له مدينة تارودانت عاصمة وقاعدة ومنطلقا، حَكَمَ من خلالها كل القطر السوسي، وبلغ نفوذه إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير.

فإلى أي حد نجح الشيخ في تطبيق نموذجه النظري على أرض الواقع؟ وما هي ملامح وخصوصيات الأوضاع السياسية، والإقتصادية، والاجتماعية، والثقافية التي عاشتها الإمارة الحاحية في عهده؟ ما هي المناطق، والقبائل التي شملها نفوذ هذه الإمارة؟ وكيف كانت علاقاتها بالقوى والإمارات المجاورة؟ وكذا بالأوربيين الذين أولوا بالغ الاهتمام للتجارة مع الإقليم السوسي، وسائر الأقاليم الجنوبية خلال تلك المرحلة؟

أسئلة كثيرة، وأخرى أكثر منها لا يسعفنا المقام لإثارتها هاهنا، سنحاول - إن شاء الله - إلقاء مزيد من الأضواء عليها من خلال الجزء الثاني من هذا العمل، والذي نأمل أن تسعفنا الظروف، حتى لا نتأخر كثيرا على القارئ الكريم في إصداره. والله الموفق.

تارودانت في 13 : فبراير 2003

موافق 11 :ذي الحجـة 1423

ملحـــق الوثائـــق

رسالة الشيخ يحيى الحاحي إلى بعض القبائل السوسية 1018 هـ/1609م

رسالة الشيخ يحيى الحاحي إلى بعض قبائل سوس*

... واستقامة العباد، فمن لم يستقم بشريعة رسول الله، ولم يطلب الدواء بكتاب الله، فاستقامته اعوجاج، وبرءه مرض، وحجته في ما يدلي به زور ولجاج، وإن استظهرتم باتفاقكم على رأي وتأويل، فأمته صلى الله عليه وسلم لا تجتمع على ضلالة .وراجع ظواهر النصوص بما أثبتوا بين سائر المسلمين من كون التأويل لا يفيد في الإفتيات ومخالفة جماعة المسلمين.

فيا إخواني في الله اتعظوا بمن تلف، فارحموا أنفسكم وارغبوا بها عن مساخط الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا، فالفتنة نار لعن الله موقدها، واعلموا أني خاطبتكم لله نصحا كما فرضه وجعله من أركان الدين، فيا ليتكم تحبون الناصحين، وأن لا خير في قوم لا يتناصحون، ولا خير في قوم لا يقبلون النصح، فبالله عليكم أن تكفوا عن مخالفة رب العالمين، وتسندوا أحكامكم إلى الشرع المبين، وتدخلوا في السلم كافة، ولا تتبعوا خطوات الشيطان، إنه لكم عدو مبين، وارجعوا إلى كلمة الأمة، واجنحوا للسلم والهدنة، واجتنبوا محاربة القبائل، واتركوا كل ما يؤدي بكم إلى معاداة أولي الأمر و مساءتهم، فليس لكم في ذلك إلا إسخاط الله والتعرض لعقابه دنيا وأخرى، والعاقل لا يرضى لنفسه ما لا يعود عليه نفعه حالا و مآلا. و نحن إخواننا ناديناكم لما تحقق لكم ولجميع الأمة صلاحه دنيا وأخرى .فتدبروا قوله جل ثناؤه: "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلا." ومن حقنا الأكيد عليكم الذي لا يسامح أن تجازوا إحساننا إليكم بالنصح وإرادة سلامتكم دنيا وأخرى من المعاطف، بعدم القبول والإعراض عن تفهم ما أنهيناه إليكم، والعمل به من معقول ومنقول .ومن حقكم علينا أنّا لا نألو جهدا في الدعاء والتوسل بشفيعنا صلى الله عليه وسلم وصلحاء أمته رضي الله عنهم في خير سفينتكم، وإخراج أموركم على خير فيما منيتم به، وإبلاغ الخبر أيضا في تأمير الإمام أصلحه الله وأصلح به لكم، والعفو عما إليه العفو عنه واجب حقه عليكم، والصفح عن زلات الجاني المكاثر، والأخذ بيد العاثر، فظننا في الله لفضله جميل، وعلى الله قصد السبيل، هو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله، والسلام .وعنه نوره الله ورضي عنه وأرضاه دائما آمين، كتب في تاريخ ذي حجة عام ثمانية عشرة وألف .

(*) رسالة مبتورة من أولها، تسلمناها من الأستاذ أحمد بزيد الكساني، ويعود تاريخ كتابتها إلى عام: 1018 هـ.

رسالة الشيخ يحيى الحاحي إلى بعض القبائل السوسية 1018 هـ/1609م

رسالة الشيخ يحيى
إلى قبائل أولاد والمنابهة وأيت إيكاس...*

من يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم كان الله له بجميل لطفه دائما آمين، إلى من سيقف عليه، إن شاء الله، من كافة أعيان بني أبي رايس وأولاد يحيى ومن انحاز إلى جانبهم، وانضم إليهم، وكافة أعيان المنابهة وإيكاسة ومن انحاز إلى جهتهم ووالاهم. سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، فكيف أنتم وكيف حالتكم. تدارك الله الجميع بفضله وألهمه رشده، إنه على ما يشاء قدير سبحانه وتعالى آمين.

أما بعد، فإنه بلغنا أنكم عياذا بالله تسارعتم بخيلكم ورجلكم إلى إسخاط خالقكم سبحانه جل وعلا، وإرضاء عدوكم اللعين وحزبه الضالين من شياطين الإنس والجن، من نبذ السلم والهدنة وراءكم، والأخذ في أسباب الشر والتعب والفتنة وإضاعة أعماركم التي (هي)[1] ما لكم في ما يلحقكم بالدرك الأسفل من النار، ويوردكم والحول لله دارة البوار، فإنا لله وإنا إليه راجعون على مصابكم وسوء انقلابكم على أعقابكم، مرقتم من الدين، وأخرجتم من جملة حزب الله المفلحين، وتعلقتم بما ليس لكم فيه في الدنيا والآخرة نجاة ولا عذر، ألم يبلغكم قوله صلى الله عليه وسلم : سباب المسلم فسوق وقتاله كفر ؟ أليس لكم في كتاب الله العزيز وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ملجأ ومعتصم ؟ هل لا رددتم أمركم وفصل ما بينكم إلى كتاب الله، وحكمتم على أنفسكم وإخوانكم بما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمته إن كنتم منهم ؟ فيا ويحكم، بعتم أنفسكم من الشيطان الرجيم، وخلعتم أزمتكم من يد الرءوف الرحيم، الهادي لمن اقتفاه واتبعه في الدنيا لأيسر ملة سمحاء، وأهدى طريق مستقيم، وفي الآخرة إلى جنة المأوى، ورضوان من الله أكبر، وفوز عظيم صلى الله عليه وسلم .وجعلتموها في أيدي العدو اللعين الرجيم الخبيث، حامل لواء الخزي واللعنة في الدنيا والآخرة، الداعي إلى عمارة دار الهوان والانقلاب إلى الدمار والخسران، عياذا بالله من سوء القضاء ومن درك الشقاء، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. عميت بصائركم، وأتلفت قلوبكم لما سكنها من أمراض النفاق، والعصيان، وضعف الإيمان، فاعتادكم أدواء تحتاجكم نسكا، وانقلب الأمر عليكم فصل من شديد المحال. ومن الله نستوهب السلامة من المكر والخذلان يا مساكين عكسا (كذا)، نسيتم

(*) تسلمنا هذه الرسالة كذلك من الأستاذ أحمد بزيد ويبدو من سياقها أنها تعود إلى نفس تاريخ سابقتها، أي: عام 1018 هـ

(1) بياض في الأصل.

الله فأنساكم أنفسكم، فلم تفرقوا بين العدو والصديق، ولا بين الوسع من الضيق، من دعاكم إلى صلاحكم لا تسمعونه ولا تلوون عليه، ومن دعاكم إلى الكفر والفساد والضلال وإتلاف أنفسكم وأموالكم في غير حق عرجتم صغيرا وكبيرا إليه، وكنتم فيما يؤمل منكم من خساركم (كذا) دنيا وأخرى طوع يديه، فيا لله من قوم أحاطت بهم خطيئتهم فكانت حركاتهم وسكناتهم من خزي الله وموجبات عذابه وسخطه دنيا وأخرى. يا معشر المساكين حنوا على أنفسكم وكفوا رقابكم من العذاب الأليم. فما لكم عليه من طاقة، وما لكم في إتلافكم من حاجة. إن لم ترحموا أنفسكم فلا راحم لها، وإن لم تتوبوا فأنتم الظالمون. فبالله عليكم إن كنتم مسلمين ورغبتم بأنفسكم عن العذاب المهين أن تحلوا عقد الشيطان الرجيم وترجعوا إلى دياركم، ولا تتحملوا ذنوبكم وذنوب غيركم من المؤمنين، واطلبوا حقكم بالشرع الذي تطلب به حقوق المسلمين. فكل خطب ولو بلغ ما بلغ ففي كتاب الله العزيز دواؤه، وفي سنة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم حكمه وشفاؤه. ونؤكد عليكم وندعوكم بدعاية الله ورسوله وحزبه المفلحين أولا وآخرا أن تكفوا عن الشر وتجنحوا للسلم ساعة يصلكم مكتوبنا هذا. ومن تعدى وبغى، وطلب غير الصلح والعافية بعد ذلك، فالله ولي الانتقام منه، وجعله عبرة للمعتبرين، وسلفا ومثلا للآخرين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والله حسبنا وحسيبكم، وهو على ما نقول وكيل ولله الأمر من قبل ومن بعد، وهو العزيز الحكيم الرحيم، والسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، والسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

نص أجوبة فقهية للشيخ عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي*

باسم الله الرحمان الرحيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

نسخة سؤال عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم رضي الله عنهم ونفعنا بهم.

نعم سيدنا عبد الله بن سيدي سعيد بن عبد المنعم[1]، رضي الله عنكم وأرضاكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد جوابكم سيدي في مسائل: الأولى الشركاء في المزارعة وصفة شركتهم أن العاملين ما أخرجوا البذور والأرض من عندهم وإنما دخلوا بعملهم، فهل يجب عليهم عشر ما ناب عنهم من الزرع وإن لم يبلغ كل واحد منهم النصاب؟ أم لا عشر عليهم أصلا؟ أم من بلغ النصاب في حظه يعشر، ومن لا فلا؟ الثانية :من فاتته من صلاة المغرب الركعة الأولى، هل يقوم بالتكبير إذا أراد أن يقضيها بعد سلام الإمام أم لا؟ الثالثة: من أسقط الركوع وأهوى إلى السجود في الأرض وتذكر في سجود، كيف يفعل؟ الرابعة: تارك الصلاة المحتاج هل يعطى من الزكاة مع وجود المحتاجين المصلين أو لا؟ الخامسة: الشريكان في المزارعة يخرج واحدهما جميع البذور ويعطيه الآخر قيمة ما ناب نصفه هل جاز ذلك أم لا؟ السادسة :المسجد هل يجوز أكل الطعام فيه أم لا؟ السابعة: الذي يوقد سراج المسجد ومست يده زيته هل أثم بذلك؟ الثامنة: من انعزل بنفسه في ورده عن الناس في أورادهم هل ذلك صواب أم لا؟ التاسعة: المتكلمون في المسجد هل يجوز ذلك أم لا؟ العاشرة: شروط المؤذن ما هي؟ الحادية عشر: ما يلفظ به المؤذن من التهليلات والمواعظ؟ الثانية عشر: من كان ينهى عن المنكر ويأمر بالمعروف ويتكلم في مصالح المسجد والأضياف وغير ذلك، هل يتمادى على ذلك أم يكف عنه؟ الثالثة عشر: ناس يصلون الجمعة في جامعهم ثم قطعوها وتركوها، هل يصلونها كما تقدم لهم، أم يتركونها وهم يجلس منهم في الجمع خمسة عشر رجلا ولهم ثلاث قرى متقاربة؟ الرابعة عشر: من وجد ناسا يتحدثون بالنساء هل ينهاهم أو يتركهم؟ الخامسة عشر: كيف يفعل من أراد أن يرقد في رقاده وفي غيره من جميع معاملاته؟ السادسة عشر: من وجبت عليه شاة واحدة من زكاة ماشيته، وحضر مساكين هل يدفعها لواحد أو لهم جميعا، أو يبيعها ويقسم عليهم ثمنها، أو يذبحها ويقسم عليهم لحمها، ما هو حكم الشرع في ذلك؟

(*) مخطوط، ضمن مجموع تحت رقم: ك: 63 بخزانه الإمام علي بتارودانت.

(1) في الأصل :سيدنا وابن سيدي عبد الله بن سيدي سعيد..

السابعة عشر: نحن في بلدنا جملة من الفقراء نحب أن نعين واحدا منا نشاوره في حوائجنا ومسائلنا ويعظنا ويذكرنا ويدلنا على الخير والصلاح. إن ظهر لك أجب لنا سيدي والله يأجركم والسلام.

بسم الله الرحمن الرحيم جوابه نفعنا الله به: من عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم كان الله له بلطفه دائما، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

وبعد، فالجواب ونسأل الله الصواب وصلاح النية في القول والفعل عن المسألة الأولى: الشركة إذا صحت فكل واحد من الشركاء يجب أن يزكي حظه إن بلغ فيه النصاب وسواء في ذلك العاملون وغيرهم، وإن كان العاملون أبناء رجل واحد وتحت يده يمونهم وينفق عليهم وعملوا له فما ناب العمل ينسب إليه وحده لا لهم، وإن كانوا إنما عمل واحد منهم لنفسه لا لأبيه فكل واحد منهم ينسب إليه حظه من الزرع ولو لم يكن الأب عزل عنهم. ومن لم يبلغ النصاب في حظه فلا زكاة عليه. قال الإمام ابن الحاجب رحمه الله: ولا زكاة على شريك حتى تبلغ حصته نصابا في عير أو حرث أو ماشية. نعم وهذا إذا لم يكن إلا هذا الزرع، وأما من له زرع آخر غير هذا فإنه يضم هذا إليه ولو كان مفرقا في بلدان شتى، ويزكى ذلك إن بلغ النصاب في الجميع، ذكر ذلك القلشاني رحمه الله ،وإن فسدت الشركة وصار الزرع كله لرب الأرض والبذر وليس للعاملين إلا إجارتهم فالزكاة في هذا الوجه لا تجب إلا على الذي صار الزرع له وحده.

وعن الثانية يقوم بالتكبير هذا المسبوق لقضاء الركعة التي فاتته، قال سيدي خليل في المختصر وقام بتكبير إن جلس في ثانية إلا مدرك التشهد فهو جلس الجلسة الأخيرة في ثانيته، والقاعدة إنما سمي قام من شفع أي ركعتين قام بتكبير، ومهما قام من وتر أي ركعة واحدة أو ثلاث، قام بغير تكبير وسواء في ذلك المغرب وغيرها من الصلوات.

وعن الثالثة، يرجع من سجوده قائما ويستحب أن يقرأ شيئا من القرآن فيركع ويرفع من ركوعه ويهوي للسجود ويمضي مع صلاته، ويسجد بعد السلام. قال في المختصر وتارك ركوع يرجع قائما وندب أن يقرأ وهذا هو المشهور .

وعن الرابعة قال سيدي سعيد بن علي الهوزالي حفظه الله ووفقه وبارك فيه في جواب له دفع الزكاة لتارك الصلاة مختلف فيه، مذهب ابن القاسم الاجزاء والغير على عدم الإجزاء. نعم والمشهور الأول ذكره سيدي يوسف بن عمر رحمه الله. وإذا كان المصلون المحتاجون فهم أولى بالزكاة من تارك الصلاة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اختاروا لصدقاتكم كما تختاروا لبناتكم، ولتدفع لمن تمنوا به كذوي الأرحام وطالب العلم ومن كان له مال وجاه ثم سلب ماله وجاهه، والأخ في الله سبحانه.

وعن الخامسة فإن اشترى الذي عليه العمل من رب الأرض جاز ذلك، وإن اشترى رب الأرض من العامل لم يجز، ذكره القلشاني وسيدي عبد الرحمن الجزولي رحمهما الله واتهمه في ذلك أن يتجاوز له في الثمن لأجل الشركة فيدخله كراء الأرض بما تنبته.

وعن السادسة قال في الرسالة ول يأكل إلا الشيء الخفيف كالسويق ونحوه، وقال سيدي

حسين بن داوود الرسموكي رحمهما الله في شرحه وأما الرمان والزيت وما يلوث المسجد ويولد الدرن فلا يؤكل فيه وإن كان يجمع نعله في ثوبه وأما ما كثر من ذلك فلا يجوز إلا للغرباء للضرورة اللاحقة بهم في ذلك انتهى بلفظه.

وعن السابعة لا يأثم مسرج سراج المسجد بل يؤجر بذلك أجرا عظيما إن صلحت النية لوجه الله. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسرج سراجا في بيت الله لم تزل الملائكة وحملة العرش يستغفرون له ما دام ضوءه فيه، ذكره في الحلل، وعن سيدي حسين بن داوود من أرج سراجا في المسجد لم تزل الملائكة تستغفر له ما دام ضوءه في ذلك المسجد. وقال فهذا إذا أسرجه بزيته فإن أسرجه بزيت غيره فله المناولة، وتجوز إجارة من يسرجه إذا لم يوجد بغير أجرة فيسرج ما يكفي من القناديل دون ما زاد على ذلك فإنه بدعة يجب تغييرها عن القاضي انتهى بلفظه. وإن مست يد المسرج الزيت فليمسها بالفتائل مسحا.

وعن الثامنة الإجماع على الورد والدعاء والقرآن مختلف فيه عند الفقهاء، والمختار عند أشياخ الطريقة الإجماع بحصول التعاون والتنبيه والتذكير والنشاط لأن الناس، ولا سيما في هذا الزمان، غلبت عليهم الغفلة والهوى واللهو وما لا يعني حتى كاد لا ينتبهوا لما ينفعهم من ذلك أصلا فرأى الأشياخ رضوان الله عليهم ما في الإجماع من المصلحة فأمروا به وارتضوه واستحسنوه وقالوا أن الإجماع على ذكر الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم خير وأولى من الإجماع على الغيبة والنميمة وما لا يعني ولا يفيد، وأيضا وإنما لم يجز به العمل في الزمان الأول فإن قام عليه دليل شرعي ولو باعتبار جنسه فهو إما وجب وإما مستحب حسن مثل القرآن والمصاحف واجتماع الناس على الإمام في قيام رمضان فليس هم بدعة في الشريعة لما ثبت من اعتبار جنسه شرعا. قال الشيخ أبو عمران الزناتي رحمه الله في حلله على الرسالة ما نصه وفي الصحيح أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يجتمعون القرآن السورة الواحدة بسورة واحدة، وذكره أيضا صاحب المفيد على الرسالة، ونقل الشيخ سيدي زروق رحمه الله في شرحه لحزب البحر عن الشيخ ابن عباد رحمه الله في رسائله كلاما ذكره حيث تكلم على حزب الإدارة قال فيه ينبغي أن يتمسك به (الرقه وابح الد يداك) انقطعت ذهب أثره بالكلية ثم قال سيدي زروق رحمه الله وقد جاء في الحديث ما يؤيد ذلك انتهى واستمر عليه العمل عند الاشياخ كسيدي محمد بن سليمان وسيدي عبد العزيز بن عبد الحق والشيخ والدنا وسيدي محمد بن يعقوب وسيدي أحمد بن موسى وسيدي محمد بن إبراهيم وسيدي أحمد بن عبد الرحمان وغيرهم من المشايخ رضي الله عنهم ونفعنا بهم إلى الآن وهم من أحرص الناس على إتباع الشرع العزيز والسنة القويمة وكم من مسائل لم تجزيها العادة عند الصحابة رضوان الله عليهم واختارها العلماء والفقهاء بعدهم رضي الله عنهم أجمعين واستحسنوها، واتباع المشايخ أهل السنة كالذين ذكرناهم رضي الله عنهم كفيل بالصلاح والفلاح والصواب والرحمة والألفة والخيرات والبركات إن شاء الله وهذا إن كان سؤالكم عن حزب الوضيعة وحزب السفهات الجاري عند الأشياخ المذكورين وتلامذتهم وإن قصدتم غير ذلك من الأوراد فالإنفراد به عن الغير أخف فيه إن شاء الله.

قائمة المصادر والمراجع

1- مصادر ومراجع عربية

○ المصادر:

مصادر مخطوطة:

- الإفراني محمد الصغير (ت: 1154 هـ)، **صفوه من انتشر**، مخطوط من نسخ محمد بن إبراهيم بن علي العيني الجراري، 263 ورقة من الحجم المتوسط، خزانة الإمام علي العامة بتارودانت، ضمن مجموع تحت رقم: 60 مـ.
- التمنارتي أبو زيد عبد الرحمان (ت: 1060 هـ)، **الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة**، مخطوط من نسخ أحمد بن محمد بن يوسف الرباطي أواسط رمضان عام 1145 هـ، 256 ورقة من الحجم الكبير، نسخة خاصة.
- الكرامي داود بن علي، **بشارة الزائرين الباحثين في الصالحين**، مخطوط من نسخ محمد بن العربي الأجراري، 79 ورقة من الحجم المتوسط، خزانة الإمام علي العامة بتارودانت، ضمن مجموع تحت رقم :مـ 60.
- عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي، (ت:1012 هـ)**الأجوبة الفقهية**، مخطوط يتكون من 8 ورقات من الحجم الكبير، الثالث ضمن مجموع في الفقه نسخه محمد بن أحمد بن داود بن مسعود عام: 1212 هـ، تحت رقم:كـ 63 بخزانة الإمام علي العامة بتارودانت.
- يحيى بن عبد الله الحاحي (ت: 1035 هـ)، **رسالة إلى بعض قبائل سوس** مبتورة الأول (1018 هـ)، نسخة خاصة مصورة عن الأصل الموجود في ملك ذ. أحمد بزيد الكنساني بتارودانت.
- نفسه، **رسالة إلى قبائل أولاد بورايس، أولاد يحيى، المنابهة وأيت إيكاس** (1018 هـ)، نسخة خاصة مصورة عن الأصل الموجود في ملك ذ.أحمد بزيد الكنساني بتارودانت.

مصادر مطبوعة:

- ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، تحقيق خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: 2، بيروت، 1988.

- ابن عسكر محمد بن علي الشفشاوني (ت: 986 هـ)، **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، تحقيق محمد حجي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1976.
- الإفراني محمد الصغير (ت:1154 هـ)، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، تحقيق عبد اللطيف الشادلي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1988.
- التاسافتي عبد الله بن إبراهيم (توفي بعد 1150 هـ)، **رحلة الوافد**، تحقيق علي صدقي ءازايكو، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، سلسلة نصوص ووثائق رقم:1، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1992.
- التمنارتي أبو زيد عبد الرحمان (ت: 1060 هـ)، **الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة**، إعداد محمد بن عبد الله الروداني، تحقيق اليزيد الراضي، مطبوعات السنتيسي الدار البيضاء، ط.1، 1999.
- الحساني إبراهيم بن علي (امتد به العمر إلى ما بعد 988 هـ)، **ديوان قبائل سوس في عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي**، تحقيق عمر أفا، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1989.
- الحضيكي محمد بن أحمد (ت: 1189هـ)، **مناقب الحضيكي**، ج. 2، نشر الحاج الحسن البعقيلي، المطبعة العربية، ط.1، الدار البيضاء 1355 - 1357 هـ، جزءان.
- الرسموكي (كان حيا عام: 1098 هـ)، **وفيات الرسموكي**، سلسلة مصادر المعسول: 2، تحقيق محمد المختار السوسي، طبع ونشر رضى الله عبد الوافي المختار السوسي، مطبعة الساحل، ط.1، الرباط 1988.
- السكتاني عيسى بن عبد الرحمان (ت: 1062هـ)، **أجوبة أبي مهدي عيسى السكتاني**، تحقيق عبد الكبير وبرايم، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في الشريعة، جامعة القرويين، كلية الشريعة بأيت ملول، غير منشور.
- الفشتالي أبو فارس عبد العزيز (ت:1032 هـ)، **مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفاء**، تحقيق عبد الله كنون، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس، الرباط، بمساهمة المركز الجامعي للبحث العلمي وتحت إشراف معهد مولاي الحسن للبحوث، المطبعة المهدية، تطوان، 1384-1964.
- القادري محمد بن الطيب (ت:1187 هـ)، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، تحقيق: محمد حجي وأحمد التوفيق، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1977.
- نفسه، **التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر**، تحقيق هاشم العلوي القاسمي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط.1، 1983.

- الكراسي محمد، **عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الفضائل**، تحقيق عبد الوهاب بنمنصور، مطبوعات القصر الملكي، الرباط 1966.
- المجهول، **تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية**، تحقيق عبد الرحيم بنحادة، منشورات عيون المقالات، دار تنمل للطباعة والنشر، مراكش، ط.1،1994.
- المراكشي العباس بن إبراهيم، **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، تحقيق عبد الوهاب بمنصور، ط.1، المطبعة الملكية، الرباط 1977، عشرة أجزاء.
- الناصري أحمد بن خالد، **الاستقصاء**، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء 1955.
- اليوسي الحسن، **المحاضرات**، أعدها للطبع محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1976.

○ المراجـــع :

الكتـــب :

- أفا عمر، **مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، أطروحات ورسائل 1، ط.1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1988.
- إيكلمان (ديل)، **الإسلام في المغرب**، ج.1، ترجمة محمد أعفيف، سلسلة تاريخ ومجتمعات، دار توبقال للنشر، ط.1، مطبعة سبو، 1989.
- البزاز محمد الأمين، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة أطروحات ورسائل رقم 18، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1992.
- بوكاري أحمد، **الزاوية الشرقاوية : زاوية أبي الجعد، إشعاعها الديني والعلمي**، مطبعة النجاح الجديدة، ط.1، 1985.
- التامري إذ إبراهيم إبراهيم، **المتعة والراحة في تراجم أعلام حاحة**، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، الطبعة الأولى، 1995.
- حجي محمد، **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة التاريخ (2)، جزءان، مطبعة فضالة، 1978.
- نفسه، **الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي**، المطبعة الوطنية، الرباط، 1964.
- حركات إبراهيم، **المغرب عبر التاريخ**، دار الرشاد الحديثة، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء 1993.

- السوسي محمد المختار، **المعسول**، الأجزاء: (14-18و19)، مطبعة النجاح ومطبعة الجامعة : الدار البيضاء، مطبعة فضالة :المحمدية، 1960-1963، (**20 ج**).
- نفسه، **إليغ قديما وحديثا**، هيأه للطبع وعلق عليه : محمد بن عبد الله الروداني، المطبعة الملكية، الرباط، 1966.
- نفسه، **خلال جزولة**، الأجزاء: 2 و4، المطبعة المهدية، تطوان، بدون تاريخ، (4 أجزاء).
- نفسه، سوس العالمة، ط. 2، مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، 1404هـ/1984م.
- الشادلي عبد اللطيف، **الحركة العياشية حلقة من تاريخ المغرب في القرن 17**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، أطروحات ورسائل:10، ط.1، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء 1982.
- صادق نور الدين، **تارودانت فيما بين (1068-1073هـ/1658-1662م) من خلال مقيدات محمد بن عبد الرحمن التلمساني (ابن الوقاد)**، مطبعة إماكوم، أكادير، الطبعة الأولى، 1998.
- ظريف محمد، **مؤسسة الزوايا بالمغرب الإسلامي**، المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، ع.1، 1986.
- القدوري عبد المجيد، **ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليت الخريت**، منشورات عكاظ، الرباط،1991.
- كريم عبد الكريم، **المغرب في عهد الدولة السعدية**، شركة الطبع والنشر، الطبعة الثانية، الدار البيضاء،1978.
- المنوني محمد، **تاريخ الوراقة المغربية** (صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم: 2، ط.1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1991.
- نفسه، **ورقات عن حضارة المرينيين**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم: 20، ط. 2، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1996.

المقالات:

- ابن تاويت محمد، **من زوايا التاريخ المغربي**، مجلة تطوان، منشورات الجامعة المغربية، معهد مولاي الحسن للأبحاث المغربية الأندلسية، مطبعة أكدال، الرباط، العدد: 10، السنة:1965، ص.(7-129).
- ارنست كلنير، **السلطة السياسية والوظيفة الدينية في البوادي المغربية**، ترجمة: عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، العدد:11، صص. (171-191) :، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1985.
- بزيد أحمد (الكنساني)، **من تاريخ الوراقة والوراقين بمنطقة سوس**، مجلة كلية الآداب

والعلوم الإنسانية بالرباط، عدد مزدوج: 21-22 ، خاص بمناسبة مرور أربعين سنة على تأسيس الكلية، صص. (97-142)، ط.1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1998.
- صادق نور الدين، **صعوبات التأريخ المحلي بالمغرب: تاريخ تارودانت نموذجا**، مجلة أمل، نظمية الزوايا في علاقتها بالمجتمع والسلطة «2»، عدد مزدوج: 22-23، السنة الثامنة، صص. (140-148)، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2001.
- صدقي علي، **النسب و التاريخ وابن خلدون**، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، العدد: 11، صص. (47-83)، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1985.

رسائل وأطروحات:

- **حنداين محمد، مساهمة في دراسة المجتمع الحضري المغربي، تارودانت ومحيطها التاريخي خلال القرنين:17-18م**، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا، جامعة محمد الخامس، السنة: 92-93 غير منشور.

معاجم:

- ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، ج. 13، دار صادر للطباعة والنشر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت 1955، 65 جزءا.

2- مصادر ومراجع أجنبية:

- Abitbol Michel, Tombouctou et les Arma, Maisonneuve et la rose, Paris 1979.
- Auguste Cour, L'établissement des dynasties des chérifs au Maroc et leur rivalité avec les Turcs de la régence d'Alger (1509-1830), Ed. Leroux, 1904.
- Berque (J), Ulémas, Fondateurs Insurgés du Maghreb XVIIe siècle, Sindbad, Paris 1982.
- Boutaleb Brahim et autres, Histoire du Maroc,Hatier, Paris 1967.
- Jean-Luis Miège, le Maroc, que sais-je, n° 439, P.U.F 1966
- Les Sources Inédits de l'Histoire du Maroc, par le Comte HENRY DE CASTRIES - PIERRE DE GENIVAL et PHILIPPE DE COSSE BRISSAC, première série, Dynastie Saadienne, Archives et Bibliothèque d': Angleterre III - France II - Pays Bas I, Editions Ernest Leroux - Paul Geuthner, Paris 1918, 1925, 1936.
- Meunié Denise Jacques, le Maroc saharien des origines à 1670, librairie KLINCSIEK 1982.
- Montagne Robert, Les Berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc, édition : Afrique- Orient, Casablanca 1989.

- Pascon Paul, La maison d'Iligh et l'histoire sociale du Tazerwalt, avec la collaboration de A. ARRIF, D. SCHROETER, M. TOZY, H. Van Der WUSTEN, Ed. S.M.E.R, imprimerie Najah El Jadida, Casablanca, 1984.
- Ricard Robert, Mazagan et le Maroc, sous le règne du sultan Moulay Zidan (1608-1627), d'après le "discurço" de Gonçalo Goutinho, gouverneur de Mazagan (1629), Paul Geuthner, Paris,1956.
- Rosenberger (B) et Triki (H), Famines et épidémies au Maroc au XVI et XVIIe siècle, Hesperis, vol XIV Fasc. Unique, 1973. Et Hesperis vol XV, Fasc. unique 1974.
- Sadki Ali. La montagne marocaine, In Hesperis - Tamuda, Vol XXVIII, fasc. Unique 1990.

فهرس المحتويات

الجزء الأول

من الدعوة إلى الإمارة

القسم الأول

في البحث عن جذور ثورة الشيخ يحيى الحاحي

الفصل الأول

فقدان المخزن السعدي لمشروعية الحكم، أو مشروعية التفاف القبائل حول الزوايا

الفصل الثاني

زاوية آل سعيد بن عبد المنعم، ومكانة الأسرة المنانية الحاحية:

القسم الثاني

مؤهلات ومرتكزات الثورة

الفصل الأول

الشيخ يحيى الحاحي يترأس زاوية إداوزداغ:

الفصل الثاني

مؤهلات وأسس الثورة

هذا الكتاب

يعتبر هذا الكتاب مقاربة نقدية متميزة وإنجازاً فكرياً رصيناً، ومع مسعاه المادي في هذا المنحى، فإنه لم يحجب، عنا أبداً، ما يزخر به من مضمون رمزي متألـــق... إنه صدى مسير التاريخ، ينبعث من أعماق الذاكرة، ليبوح بما جرى عند أسوار المدينة العتيقة "تارودانت"، وبعيداً عنها، في متسع تلك الأرباض والمدن والثغور.

هذه النفحة التاريخية صادرة عن تكوين باحث محنك، وهي تشكل إنجازاً بذل فيه الأستاذ نور الدين صادق كامل مجهوده... ليكشف بذلك عن جانب من جوانب تاريخ منطقة سوس والجنوب المغربي، التي كانت تعيش لحظة من لحظات الاضطراب الذي يعرفه المغرب برمته في أواخر العهد السعدي.

...وفي مضمون هذه المقاربة، في شقيها المادي والرمزي، يجد القارئ بكيفية عفوية، ما يحثه للوقوف على تفاصيل الإمارة الحاحية، والوقوف كذلك على الحصيلة العامـــة التي يعرفها تاريخ المغرب في هذه الحقبة، على مستويات الاقتصاد والسياسة والثقافة والاجتماع، عند أُفول دولة شائخة، وانبعاث طلائع دولة جديدة تؤول إليها مقاليد الأمور.

د.عمر أفا

كلية الآداب – الرباط

